أخبار اليوم

مجموعة الأعمال الكاملة

حصاد الصبر

فريق متميزون
E-BOOK

عبد الوهاب مطاوع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: حصاد الصــبر.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لبريد الجمعة:

حصـــــاد الصـــــبر

عبدالوهاب مطاوع

مقدمــة..

في هذا الكتاب مجموعة جديدة من قص الحياة الواقعية التي تعاملت معها عن قرب خلال كتابتي لباب بريد الجمعية الأسبوعي في الأهرام، وبعض هذه القصص الواقعية سوف يحرك أشجانك وربما أحزانك.. وبعضها الآخر قد يثير خواطرك وتأملاتك في أحوال الدنيا الغريبة، وبعضها الثالث قد يجدد سخطك على كل ما في الحياة من غدر ومعاناة وتعاسة إنسانية.. وفي كل هذه الأحوال فلقد تزيد هذه القصص والصور الإنسانية من خبرتك بالحياة، ومعرفتك ببعض أسرار النفس البشرية.. فلقد تعلمت عنها خلال تعاملي معها الجديد عن الحياة والبشر والنفس الإنسانية.. وأردت أن أشركك معي فيما تعلمته منها.. وفي درس التجربة الذي دفع أبطال هذه القصص ثمنه غاليا من أمانهم وحياتهم وسعادتهم قبل أن يسطروا تجاربهم على الورق.. وغاية املى هو أن تزداد بعد قراءتك لهذه القصص تمسكا بالقيم والمثل وكل المعاني الجميلة في الحياة، ورفضا واستنكارا وإدانة لكل صور الغدر والقبح والظلم الإنساني فيها.

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حق الإختـــــيار

ليست هذه هي المرة الأولى التي أحاول الكتابة إليك فيها..

لكني أكتب إليك الأن لأن ذلك قد يكون أخر محاولة لإنقاذ ما تبقى من حياتي.. فأنا سيدة عمري ثلاثون عاما حاصلة على شهادة جامعية وعلى قدر من الجمال وقد نشأت في أسرة كريمة ولى أخوة أصغر مني، ولقد نشأني أبي على الأخلاقيات والطباع التي نشأ هو عليها، وربىَ فيّ الإحساس الشديد بالخطأ والصواب فلم أحاول خلال صباى مجرد الحديث العابر مع أي شاب ليس بضغط من والدي، وإنما عن اقتناع داخلى بذلك، ثم جاءت المرحلة الجامعية، وفي اليوم السابق لدخولي الجامعة لأول مرة، نبهني أبي إلى أنني سأذهب إلى مجتمع جديد على وأنه يطلب مني أن أدع قلبي لديه هو ليحفظه لي حتى يهديه فيما بعد لمن يشعر بأنه يستحقه، لأن الهدف من الجامعة هو الحصول فقط على الشهادة وليس أي شيء آخر.. ولم أغضب لما قاله أبى لاقتناعي بأنه ليس من حقي أن أهب مشاعري وعواطفي إلا لمن سوف أتزوجه وحده، وبدأت مرحلة الدراسة الجامعية، فلم أقترب من أحد ولم أسمح لأحد من الزملاء بالاقتراب مني، إلى أن اقتربت بداية العام الجامعي الثالث وذهبت مع والدتي إلى أحد المحلات التجارية بمصر الجديدة لشراء ملابس الجامعة فالتقينا بقريبة لوالدتي لم أرها ولم ألتق بها من قبل.. ولم يستغرق اللقاء بيننا أكثر من ربع الساعة.. لكنه غير مجرى حياتي بشدة بالرغم من ذلك، فبعد يومين من هذا اللقاء العابر زارتنا شقيقة هذه القريبة في بيتنا مع زوجها وابنها، وبعد يوم آخر اتصلت بنا الشقيقة وطلبت مقابلة أبي لخطبتي منه، وجاءوا لزيارتنا وطلبت مني والدتي تحيتهم فدخلت الصالون وجلست بينهم بعض الوقت والخجل يسيطر علىّ فلا تواتينى الجرأة على التحقق من ملامح الشاب المرشح للارتباط بي، وفي هذه الجلسة تمت قراءة الفاتحة والاتفاق على موعد الخطبة ثم القران والزفاف على أن أقيم مع زوج المستقبل في مسكن والدته حيث إنه أصغر الأبناء، ولم أعترض على ذلك.. بل كنت راضية تماما وعلى ثقة كاملة بحسن اختيار أبي لي.

وتحدد موعد قريب للخطبة وقبل حلوله بيومين أخبرني أبي بأنه قد قرر أن تكون الخطبة قرانا وأن يتم الزفاف عقب حصولى على الشهادة.. ولم اعترض على ذلك، بل لقد فرحت بالفستان الأبيض والعريس والشبكة مثلي في ذلك مثل أية فتاة أخرى..

وتمت الخطبة وعقد القران خلال بضعة أيام من رؤيتي لخطيبى لأول مرة في الصالون، وزارنا بعدها مرتين ثم بدأ فترة الخدمة العسكرية.

وبعد شهر آخر اتصلت بنا شقيقته لتبلغنا بأن خطيبي في الرعاية المركزة بمستشفى المعادي العسكري.. وهرولت إلى هناك مع والدتي فوجدناه في حالة سيئة للغاية ولا يكاد يشعر بما حوله بعد إصابته بنزيف في المخ، وتأثرنا جميعا بما أصابه، ولم يتردد أبي في أن يؤكد لوالده أننا لن نتخلى عنه مهما حدث له لأنه زوج ابنته، وبعد

فترة ليست قصيرة غادر خطيبى المستشفى على أن يرجع إليه للمتابعة الصحية كل أسبوع لمدة ستة أشهر، وشعرت بالحزن والأسى لخطيبي وأنا أراه يتكلم دون تركيز أو بلا توقف ولا يحب أن يقاطعه أحد.. علاوة على عصبيته الشديدة، ومرت هذه الفترة العصيبة من حياتي بصعوبة شديدة ودفنت كل أحلامي القديمة في السعادة والحب والتفاهم مع من أحب ولن يلمس يدي سواه، وتحطم كل شيء في داخلى.. ولم يبق إلا الحزن والصمت وأنا أرى خطيبي عصبيا بدرجة لا يمكن تصورها ولا يعرف معنى كلامي ولا أتفاهم معه على أي شيء وأنهيت دراستي الجامعية وسط هذه الظروف العصيبة، وطلب أهل خطيبي بإلحاح إتمام الزواج على أساس أنه الحل الوحيد لتهدئة أعصابه، حيث إنه يشعر بالغيرة على من كل شيء، ووافق أبي على ذلك، لكنه وبسبب ما لاحظه من عصبيته الشديدة توجه إلى الطبيب الذي أجرى له الجراحة في مستشفى المعادي ليستفسر منه عن حالته، وأبلغه الطبيب أنه قد أجرى له عملية استئصال جزئى لفص التفكير الأيمن في المخ وأن من النتائج المتوقعة لمثل هذه الجراحة.. العصبية الشديدة، ولهذا فقد طلب من والده عقب الجراحة.. أن يعرضه على أحد أساتذة الطب النفسي لتخفيف آثار الصدمة ونتائج الجراحة عنه، لكن الأهل لم يفعلوا ذلك حرصا على سمعته!

ومضى والدي بالرغم مما عرفه في اتمام اجراءات الزفاف وشراء الأثاث والجهاز، وفوجئنا بخطيبي يأتي إلينا ليبلغنا بأنه استأجر شقة لتكون عشا للزوجية بدلا من الإقامة مع والدته كما كان الاتفاق السابق.. ورحبنا بذلك وذهبت مع والدي ووالدتي لرؤية الشقة فلم نسترح إليها وحدثت مشكلة عائلية كبيرة لأن أسرة خطيبي كانت قد وقعت العقد ودفعت المقدم وصدرت عن خطيبي خلال ذلك تصرفات وألفاظ أزعجت أبي بشدة حتى إنه قرر لأول مرة عدم اتمام الزواج، إلا أن الأهل تدخلوا وضغطوا عليه وأقنعوه بأن كل ما صدر عنه خارج عن إرادته، وأنه ليس من المصلحة أن تصبح ابنته مطلقة بعد عامين من الارتباط خوفا من كلام الناس.. الخ. ورضخ أبي في النهاية بعد اعتذار خطيبي وأهله عما حدث.. وفي حفل عائلي تم الزفاف وبدأت المأساة الكبرى في حياتي التي مازلت أعانيها حتى الآن.. وبغير الدخول في تفاصيل مخجلة فلسوف أقول لك فقط إن أبي قد رحل عن الحياة بعد زفافي بيومين بأزمة مفاجئة، وأن زوجي بدأ يستسلم لنوبات العصبية الشديدة من الأيام الأولى لزفافي الذي لم يتم في الحقيقة حتى إنه قد ضربني بعد 15 يوما فقط من الزواج وسالت الدماء الغزيرة، حين ضرب كوب الماء بيده فتناثرت أجزاؤه وتطايرت الدماء على الجدران والسقف كأنني في أحد مشاهد أفلام الرعب المخيفة.. ثم بعد قليل راح يعتذر لي ويعدني بعدم تكرار ما فعل ويطلب تكتم كل شيء.. ولقد تكتمت بالفعل ما أعانيه وصبرت عليه غير أن والدتي رأت بالمصادفة علامات الضرب على جسدى وسألتني عنها فانهرت واعترفت لها بكل شيء، واصطحبتني أمي إلى طبيبة أخصائية لعلاجي.. ووقف أعمامي بجواري وطلبوا من أسرة زوجي الطلاق خاصة بعد أن استفسروا عن حالة زوجي لدى الطبيب الجراح لكن والدتي خشيت من كلام الناس عن الفتاة التي تزوجت فمات أبوها بعد زفافها بيومين فجأة، وطلقت بعد رحيله عن الحياة بأقل من شهر، واتفقت مع والدة زوجي على عودتي له بشرط أن تستمر هي في علاجه، وأن تتعهد لها إذا لم ينجح

العلاج بأن تعيدني إليها كما أخذتني منها عذراء لم يمسسها بشر لكي أستطيع بدء حياة جديدة في مكان آخر.

وتعهدت والدة زوجي لأمي بذلك، غير أن الأمور تطورت للأسف في اتجاه مختلف، فلقد اصطحبتني حماتي بعد أيام من عودتي إلى طبيبة تعرفها لأمراض النساء والولادة للاطمئنان على كما قالت لى، وذهبت معها بحسن نية فما إن رقدت على سرير الفحص، حتى فوجئت بحماتي تجثم فوق صدري لتمنعني من الحركة، وإذا بالطبيبة - سامحها الله - تقضي على مستقبلي باتفاق مسبق مع والدة زوجي.. وفي نفس الليلة حملت في طفلي الوحيد وأنجبته بعد تسعة أشهر، وفرحت به رغم الأحزان المحيطة، وخيبة الأمل في كل شيء، ومضت الأيام حافلة بكل ما لا ترغبه عروس شابة لنفسها، حتى اكتملت سبع سنوات تجرعت خلالها كل أنواع الإهانة من زوجي ومن أهله الذين عاملوني أسوأ معاملة هم أيضا لضيقهم بحالة ابنهم علاوة على عصبيته التي زادت على كل حد والضرب ولم أكن أفعل شيئا لدفع هذا الظلم عني سوى اللجوء إلى بيت أمي غاضبة من حين لآخر حتى أمضيت نصف فترة زواجي تقريبا في بيتها، ثم انهارت أعصابى تماما في النهاية وتعرضت لمحاولات مقززة من بعض الأشخاص القريبين من زوجي وأسرته لدفعي للخطأ غير أن الله سبحانه وتعالى قد حمانى منه ومنهم..

وزادت الإهانات من جانبه ومن جانب أهله وتضاعفت المعاناة وذهبت معه إلى عدد كبير من أطباء الأمراض العضوية والنفسية الذين كانوا يطلبون بعد عدة جلسات مع زوجي رؤيتي والحديث معي عن حالته، فكان بعضهم يفعل ذلك بإخلاص وأمانة.. وكان البعض الآخر للأسف يغازلني اعتمادا على ما يعلمه عن حالة زوجي.. وتداخلت عوامل كثيرة نفسية وصحية لا تفي الكلمات مهما حاولت بوصفها، وفقدت ما بقي من قدرتي على الاحتمال فانفصلت عن زوجي وتنازلت له عن كل حقوقى وعن الشقة بالرغم من أني حاضنة لطفلي وتحملت مسئولية الطفل وحدي ومضى عام وبعض عام استرددت خلالها بعض صحتى المتدهورة، وبعض معنوياتي المنهارة، ثم بدأ زوجي السابق يطالبني بالعودة إليه مرة أخرى مؤكدا لي أنه قد تغير وأنه لن يهدر كرامتي مرة أخرى وأنه.. وأنه.. الخ. ومن جانبها راحت والدتي تضغط على للعودة إليه والرجوع إلى شقتي الجميلة حفاظا على ابني.. الخ.. وأنا تائهة وحائرة ولا أستطيع اتخاذ القرار السليم.. إنني لا أنكر على زوجي السابق أنه طيب وأن تصرفاته التي أشكو منها ترجع إلى عصبيته الشديدة وحالته الصحية، كما أنه ميسور إلى حد ما، لكني لا أعرف ما أفعل ولست على ثقة بأن كل ما عانيته طوال سبع سنوات سوف يختفي بجرة قلم إذا رجعت إليه، ولقد رحل أبي عني وعجزت عن التفكير واتخاذ القرار الصحيح.. وأرجو أن تعتبرني ابنتك وان تشير علىّ بما يشير به الأب على ابنته في مثل هذه الظروف الدقيقة.. وشكرا لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لك بعض العذر يا ابنتي في عجزك عن التفكير واتخاذ القرار السليم في الاختيار الذي يواجهك الآن.. ليس لأن الاختيار صعب ومحير وتتشابه فيه البدائل على نحو يصعب معه اختيار الأصلح منها، وإنما لأن والدك قد عودك أن يتولى هو «التفكير» بالنيابة عنكِ واتخاذ القرارات المصيرية لكِ بغير أن يكون لكِ شأن كبير أو صغير في اختيارها.. فإذا كان قد أحسن إليك بتنشئتك على القيم الدينية والفضائل والنفور من الخطأ والخطيئة، فلقد أضرّ بكِ للأسف من حيث لم يرغب بحنوه الزائد عليك وحرصه الشديد على أن يجنبك مئونة الاختيار لنفسك، وليس أسوأ من تخلى الآباء والأمهات عن مسئولياتهم المادية والمعنوية عن أبنائهم وتركهم للغرق في دوامة الحياة إلا مصادرة الآباء والأمهات لحق هؤلاء الأبناء في التفكير والاختيار واتخاذ القرارات المصيرية في حياتهم بالاستعانة بحكمة الأهل.. فكلا الأمرين شطط يخرج عن جادة الاعتدال ويعرض الأبناء للضياع في معركة الحياة..

وليست مهمتنا كآباء وأمهات أن «نفكر» نحن بالنيابة عن أبنائنا في حياتهم، وأن نتخذ لهم قراراتهم المصيرية دون مشاركة منهم فيها، وإنما أن نغرس فيهم إلى جانب الفضائل والقيم الدينية القدرة على التمييز بين الخير والشر، وبين الصواب والخطأ.. والقدرة على «التفكير» في شئون حياتهم واتخاذ القرارات المناسبة بشأنها فيما يواجهونه من اختيارات واختبارات خلال رحلة العمر، فالعضو الذي لا يستخدمه صاحبه من أعضاء الجسم يضعف ويتدهور بأسرع من العضو الذي يتكرر استخدام، والاعتماد عليه، وكذلك إرادة الإنسان وقدرته على ممارسة المسئولية عن نفسه وعن الآخرين وممارسة حق الاختيار والتفكير.. غير أن هذا العمل السلبي ليس وحده المسئول عن حيرتكِ الآن.. فلقد تداخل معه عامل آخر في صنع مأساتك، هو التحرز المغالي فيه ضد كلام الناس والخوف الزائد من السنة السوء.. وبسبب ذلك تراجع والدك عن الالتزام بقراره بعدم اتمام زواجك قبل الزفاف، بعدما لمسه عن قرب من تصرفات خطيبك وعصبيته الشديدة وتجاوزاته الصارخة خلال أزمة شقة الزواج..

وإذا كان موقفه في المستشفى حين أكد لوالده أنه لن يتخلى عنه مهما حدث له من عوارض الحياة، مما يحسب له ولشهامته وأصالته وإيمانه الصحيح بأنه لا ذنب لمثل هذا الشاب في أقداره المؤلمة، فإن موقفه حين تراجع عن قرار عدم اتمام الزواج بدعوى الخوف من كلام الناس، لهو مما يحسب عليه وليس له أو لحكمته وبعد نظره، ذلك أنه لو كان قد تمسك به وقد لمس بنفسه تجاوزات الشاب واجتراءه على الغير حتى ولو كان لحالته الصحية أثر في ذلك، لأعفاك من كل هذا العذاب الذي تجرعتِه على مدى سبع سنوات عجاف في حياتك، وأثمر هذا الطفل الحائر المحروم من نشأته الطبيعية بين أبويه.. كما أن والدتك - لو لم تكن قد تأثرت بهذا العامل السلبي نفسه وهو المغالاة في التحسب لما سوف يظنه بنا الآخرون - لتمسكت بانفصالك عن زوجك بعد اكتشافها ضربه وإيذائه لكِ في الأيام الأولى من الزواج، حتى ولو كان الأمر قد تطلب منها أن تستضيفك لديها بضعة أسابيع بدعوى تهدئة الحالي.. لتطيل أمد الزواج نسبيا قبل الانفصال ونحن مطالبون بالفعل بالحرص على سمعتنا، وبأن نتجنب الشبهات ونكف ألسنة الغير عنا بالالتزام

بالطريق القويم في الحياة، لكن هذا الحرص الحميد لا ينبغي له أن يتجاوز الحدود الآمنة.. لكيلا نعلق سعادتنا وحياتنا على أطراف ألسنة الغير، وندعهم يقودون حياتنا ونعجز نحن عن اتخاذ القرار السليم الذي تفرضه الظروف القاهرة علينا حين تدعو الحاجة إلى ذلك. والطريق إلى جهنم قد يكون مفروشا في بعض الأحيان - كما يقول المثل الإنجليزي - بالنيات الطيبة، وليس أدل على ذلك من أن والدتك بدلا من أن تعينك على القرار الصحيح قد وثقت بحسن نية في تعهد والدة زوجك لها بأن «تعيدك» إليها سالمة إذا لم ينجح العلاج مع ابنها المحكوم بأقداره، كما أنك أنت أيضا قد ذهبت بحسن نية معها إلى الطبيبة بدعوى الاطمئنان عليك فإذا بها تدخر لك أمرا آخر أسهم للأسف في تعقيد المشكلة وإطالة سنوات العذاب.. والآن فإن والدتك تضغط عليك من جديد للعودة إلى زوجك السابق من أجل شقتك الجميلة، ومن أجل ابنك.، إلخ وأخشى أن يكون قد أضيف إلى العوامل السابقة التي شاركت في صنع تعاستك عامل آخر لا يخلو من شبهة الاعتبار المادي والرغبة في التخفف من بعض الضغوط المادية بالنظر لمسئوليتك عن طفلك الوحيد.. ومن خبر طريقا فلم يؤد به من قبل إلى الغاية التي ينشد بلوغها ليس من الإنصاف لنفسه أن يحاول اختباره مرة أخرى مؤملا أن يؤدى إلى غاية أدرك بالتجربة أنه لا يقود إليها. ولهذا فإني أدعوك إلى اسقاط كل هذه العوامل السابقة من اعتبارك وأنت تفكرين في الاختيار لحياتك مرة أخرى بعمل كل ما جرى وكان، وأطالبك انصافا لنفسك بأن يكون العامل المؤثر الحقيقي في قرارك بالعودة أو رفضها هو هل حدث بالفعل أي تغير إيجابي حقيقي في شخصية زوجك السابق وحالته العصبية وظروفه الصحية.. أم لا؟.. وهل انتظم في العلاج النفسي والعصبي والعضوي خلال الفترة الماضية وحقق العلاج نتائج إيجابية طيبة أم لا؟.. وهل أصبح أكثر قدرة على تمالك نفسه وأعصابه وكف لسانه عن الأذى والإهانات، وتعلم من تجربته أن يحسن عشرة من تتحمل ظروفه أم لا؟.. ثم هل هو بعد كل ذلك، على استعداد لأن يطمئنك على تحسنه باصطحابك مع والدتك إلى الأطباء المعالجين له لتسمعا منهم شهادة محايدة عن حالته العصبية والعضوية؟.. هذه هي العوامل الأولى بالاعتبار في قرار العودة.. إلى جانب العامل الآخر المحوري وهو مصلحة هذا الطفل الحائر بالطبع.. أما الوعود والكلمات التي لا يصدقها العمل فإنه لا يمكن الاعتماد عليها في مثل هذه الظروف، بل إن الله سبحانه وتعالى قد يحاسبنا على الانخداع بما سبق لنا أن انخدعنا به من قبل بغير أن نتعلم من تجربتنا معه، ونحترس له.. والحق أن هناك ما يثير الريبة لدى في أن بعض تصرفات زوجك معك وإهاناته لك لا يمكن ارجاعها كلها إلى حالته العصبية والصحية، ذلك أن العصبية المرضية إذا كانت تتمثل في سرعة الاستثارة والانفعال والغضب، فإنها لا تعني بالضرورة إيذاء الغير وإهانتهم.. وإلا فلماذا لا تتوجه هذه العصبية المرضية إلى الغرباء الذين يتحسب العصبيون لردود فعلهم تجاههم، فلا تتجاوز عصبيتهم معهم أبدا الخطوط الحمراء إلى الضرب والعدوان والإهانات الجارحة؟!

إن المؤسف هو أن مثل هذه العصبية حتى ولو كانت لأسباب مرضية، تتوجه في الأغلب الأعم لمن يعرف أصحابها أنه لن يرد عليهم العدوان بالعدوان، ويشجع الضعف والاستكانة وقلة الحيلة أصحابها على التمادي، مما يدفعني لأن أشك في أن

بعض مظاهر عصبية زوجك السابق معك وإهاناته لك إنما تتداخل فيها أسباب أخرى تتعلق بسوء الطبع والاستضعاف، وشيء من الاحساس بالتمايز الطبقي أو المادي عليك مع تقديري للاعتبارات الأخرى المتعلقة بظروفه الصحية أعانه الله عليها ولهذا فهو يحتاج إلى أن يرغم نفسه على أن يصلح من أمره.. ويحسن عشرتك ويعينك بذلك على التجاوز عن الانفلاتات العصبية الراجعة لحالته المرضية.

ففكرى يا ابنتي في أمرك بنفسك. أحدا غيرك

ولا تدعي

يفكر لك، ولا تغامرى بالاستجابة للضغوط قبل أن تتيقنى من أن تغيرا إيجابيا حقيقيا قد حدث في شخصية زوجك السابق وحالته الصحية والعصبية وطباعه.. ونظرته لكِ وللحياة.. فإن لم تطمئنى لذلك.. فلا داعي لتكرار التجربة وتكبد العناء عامين أو ثلاثة أعوام أخرى ترجعين بعدها إلى بيتك وعلى ذراعك طفل محروم آخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ســـرّ التحول!

أنا رجل في الرابعة والأربعين من عمرى.. تزوجت منذ ستة عشر عاما من إنسانة طيبة، كانت أختا لصديق لي، وكان والدي يحب صديقي هذا من بين كل أصدقائي فرشح لى شقيقته للزواج منها قبل أن يراها.. ورحبت أنا بهذا الترشيح قبل أن أتحدث معها أو أعرفها عن قرب، وتزوجنا وأقمنا في البداية مع والدة زوجتي.. ثم انتقلنا بعد فترة إلى شقتنا التي أعددناها لتكون عشا للزوجية وانتقلت والدتها معنا حيث كانت تستريح للإقامة بيننا وأنجبنا طفلنا الأول، وبعد مجيئه إلى الحياة رفضت زوجتي الانجاب مرة أخرى وتمسكت بذلك لمدة ثماني سنوات كاملة إلى أن أقتنعت بضرورة انجاب شقيق أو شقيقة أخرى لابننا الوحيد، فانجبنا طفلنا الثاني وبلغ من العمر الآن سبع سنوات، ومنذ الأيام الأولى لزواجنا ملكت على زوجتي قلبي وعقلي وكياني بأخلاقها الكريمة وطيبتها وأصالتها، حتى أصبحت بعد فترة قصيرة من الزواج أهيم بها حبا، ولا أضع أية إنسانة أخرى في الوجود موضع المقارنة معها، وأحرم على نفسى مجرد النظر إلى غيرها من النساء، أما هي فلقد اعتبرتني أيضا كل شيء في حياتها، وملكت عليها أنا كذلك قلبها وعقلها وكيانها، حتى كانت تتصل بي في عملي من عملها لتبثني شوقها وافتقادها لي في الساعات القليلة التي فصلت بيننا.. ومضت بنا الحياة سعيدة وجميلة وهادئة على هذا النحو.. وأنا لا أقصر في بذل الجهد لإرضاء زوجتي وتخفيف الأعباء عنها، فكنت مهما تأخرت في العمل ليلا أحرص على الاستيقاظ في السادسة صباحا لإعداد الشطائر للولدين. والافطار لزوجتي.. ثم اصطحب الولدين للمدرسة وأترك سيارتنا الصغيرة أمام مدرستهما وأهرول إلى عملى، وعند انتهاء الدراسة أرجع إليهما فأصطحبهما ثم أتوجه إلى عمل زوجتي وأصطحبها إلى البيت ونرجع معا، فلا استريح سوى لحظات ثم أهرول عائدا إلى عملى، هذا بخلاف قيامى بشراء كل مستلزمات البيت.. والاستجابة لرغبة زوجتي ووالدتها في شرائها من أماكن محددة بعينها على مسافات بعيدة ومختلفة، فالخبز لابد من إحضاره من فرن خاص يبعد عن منزلنا 12 كيلومترا بالسيارة، واللحم لابد من شرائه من جزار بعينه على بعد 11 كيلومترا في اتجاه مختلف.. والبقوليات من محل محدد على مسافة 15 كيلومترا، وكذلك الخضراوات والدجاج والأسماك والبقالة كل منها من مكان معين لا بديل له، حتى المياه الغازية كان لها أيضا مكان أفضل من غيره لشرائها منه، مع أنها تعبئة واحدة ومن خط انتاج واحد، لكني رأيت ذلك يرضي زوجتي ووالدتها فكنت استجيب لما تطلبان وأحضر لهما ما تريدان من الأماكن التي يفضلانها إلى جانب تحمل مسئولية نظافة الشقة وحدي ومعاناتي في سداد أقساط شقة أوسع نخطط للانتقال إليها، واختلاف مواعيد نومى تبعا لتغير ورديات العمل، ثم بدأت في الفترة الأخيرة ألاحظ إهمال زوجتي لي وتجاهلها على غير سابق عادتها لغضبي إذا غضبت منها لأي سبب من الأسباب العابرة وتركها ل دون سؤال عن سبب غضبي وانفعالي إلى أن أبدأها أنا بالكلام والعتاب، كما بدأت تتجاهل محاولاتي الخفية للحديث معها في أي شيء، بكبرياء راح يتزايد مع الأيام، فإذا انتهي هذا التجاهل بانفجاري فيها وسبابي بكت وراحت تشكو من أنها مظلومة وأنني دائم العصبية بلا سبب، ثم

يتدخل شقيقاها ويسمعان منها ومن والدتها ومنى، فيجدان اللوم واقعا عليها لتجاهلها لى وتركها الأمور حتى تصل إلى حافة الانفجار وقد تكرر هذا الموقف منذ أربعة أشهر، وجاء شقيقها فشهدت لي والدة زوجتي بأنني لم أقصر في حقها في شيء بل إنني حتى في حالة الخصام أعد لها طعام الإفطار وأحضرها بالسيارة من العمل، فلام شقيقته وغضب منها. وانهارت هي، ثم اتفقت مع شقيقها على أن أترك لها البيت فترة إلى أن تهدأ أعصابها وانتقلت إلى بيت والدتي، وأمضيت به ثلاثة أيام، مرت على كأنها ثلاثة أشهر دون أن يسأل عني أحد من زوجتي أو أبنائي فاتصلت بشقيقها واقترحت عليه أن أرجع إلى بيتي وأن تنتقل هي للإقامة لدية لبعض الوقت حرصا على انتظام الأبناء في الدراسة وإلى أن ترجع المياه إلى مجاريها بيننا، ورجعت للبيت وفوجئت بأن والدة زوجتي قد غادرته مع ابنتها وكنت قد طلبت بقاءها معي ومع الأبناء، وبعد يومين جاء شقيق زوجتي ليبلغني بإصرار زوجتي على الانفصال وطلب الطلاق، وانهرت حين سمعت ذلك ورفضت بشدة وطلبت منه التروي لأنه ليس هناك سبب جدي يدعو إليه، وكثيرا ما تشهد الحياة الزوجية خلافات أكبر من ذلك ثم تستمر وتتواصل بلا عناء.. لكن كل المحاولات مع زوجتي لإثنائها عن رغبتها المفاجئة في الطلاق باءت كلها بالفشل، ومنذ أربعة أشهر لم يمض أسبوع واحد دون أن أرسل إليها فضلاء الأقارب والمعارف للتوسط بيني وبينها لإقناعها بالعودة دون جدوى.

وقد تركت الأبناء طوال هذه الفترة معي وهي تعلم ظروف عملى التي تضطرني لتركهم في الليل في كثير من الأحيان، ومنذ أسابيع جاءت إلى البيت وطلبت مني الطلاق وهددتني بأني إن لم استجب لطلبها فإنها سوف تنتحر، وطلبت من ابنيها أن يقنعانى بطلاقها وإلا فإنها سوف تنتحر.. ويعيشان وأعيش أنا وهما ونحن نحمل ذنبها في أعناقنا! وانهار الولدان باكيين واحتضنتهما وهدأت من روعهما لكنهما مرضا بعد ذلك لمدة 15 يوما لم يرق خلالها قلبها لهما أبدا!!

لقد بكيت كثيرا يا سيدي أمام أبنائي وأنا أتعجب لهذا التحول الغريب في مشاعر زوجتى تجاهى وتجاه أبنائها ورغبتها الشديدة هذه في الطلاق.. وشاركني شقيقاها ووالدتها التعجب لهذا التغير ولعدم سؤالها عن ابنيها ولعنادها وجفائها واتفقوا على أن ما حدث لا يستحق الطلاق ولا يدعو إليه، حتى لقد توسط بيننا رجل دين كبير له مقام جليل عند الجميع وطلب مني الصبر عليها وتحملها إلى أن تهدأ أعصابها ونصحني بعرضها على الطبيب النفسي لعله يستطيع مساعدتها.. لكنها مازالت ترفض كل المحاولات والمساعي، وإني اسألك لماذا يبيع الإنسان عشرة العمر والأبناء هكذا ولأسباب يمكن معالجتها والتغلب عليها؟

لقد رميت نفسي بالخطأ.. دون أن أخطئ وراجعت نفسى وتعهدت بضبط النفس والتحكم في الأعصاب والتوقف عن أي شيء يغضبها وأرغب بشدة في الحفاظ على البيت والأبناء، لكنها ترفض كل ذلك وتقول إنها لم تكن سعيدة معي وتروي أشياء صغيرة من تراكمات 16 سنة من الزواج كنت قد نسيتها تماما ولا أراها تستحق أن يتذكرها أحد.. لكنها تحفظها عن ظهر قلب وتعيد روايتها بتفاصيلها العجيبة ولا تقتنع بكلام الأهل والأقارب والأصدقاء.. وتصر على أن تفقد، أكثر

ثلاثة أشخاص في الوجود يكنون لها كل الحب والاعزاز وهم أنا والولدان، فماذا أفعل لكي أستعيد زوجتي وسعادة ابني واستقرارهما.. إنني لست ممن يبيعون العشرة بسهولة حتى ولو باعتها زوجتي، ومازلت آمل أن يهدئ الله النفوس ويفتت هذا الحجر الصلد الذي تكون داخل صدر زوجتي حتى ما عادت تهتم برؤية الولدين وتصرح بأنهما إذا كانا لا يريدانها فإنها هي الأخرى لا تريدهما.. فهل تستطيع لى شيئا يمنع هذا البيت من الانهيار؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إن لم أستطع لك شيئا وقد فشلت كل الجهود والمساعي بما فيها جهود رجل الدين الجليل الذي أشرت إليه في اقناع زوجتك بالتنازل عن رغبتها العنيدة في الانفصال عنك، فلعلى استطيع على الأقل أن أفسر لك بعض ما غمض عليك فهمه من سر تحولها «المفاجيء» عنك وقد كنت تظن كما تقول إنك قد ملكت عليها قلبها وعقلها وكيانها كما ملكتها هي عليك بالفعل، «فالحجر الصلد» الذي تقول إنه قد تشكل في صدر زوجتك كغيره من الأحجار الجيرية يتكون من ذرات صغيرة، تتجمع في البداية حول نواه أولية ثم تتراكم عليها الإضافات الجديدة يوما بعد يوم.. فتتماسك معها، وتلتحم بها وتزداد صلابتها على مر السنين إلى أن يأتي وقت يتعذر فيه تفتيتها وإزالتها إلا بقوة ضاغطة هائلة.

وآفة العلاقات الزوجية في كثير من الأحيان.. هو أن طرفيها أو أحدهما قد لا يبادر بإزالة هذه الذرات الجيرية الضئيلة في بدايتها، مستعينا على ذلك بالرغبة المشتركة في السعادة وانجاح الحياة الزوجية.. وروح التسامح ونسيان الاساءات الصغيرة، فتكون النتيجة هي أن تتراكم هذه الذرات تحت السطح، وتستقبل المزيد والمزيد، وتساعد الذاكرة غير المتسامحة على اختزانها والحفاظ عليها.. إلى أن تأتي لحظة فاصلة يشعر فيها أحد الطرفين وكأن حجرا هائلا قد جثم فوق صدره وحال بينه وبين التواصل مع شريك حياته، فإذا كان من أهل العطاء وإنكار الذات من أجل سعادة الأبناء تجرع علقم الانفصال الروحي عن شريكه صابرا ورضي بحياته كما هي عليه مفضلا سعادة ابنائه على سعادته، وإذا كان من طالبي السعادة الشخصية ولو على حساب أمان أبنائه، فوجئ الطرف الآخر بتحوله «المفاجيء» وإصراره على الانفصال عنه فوقف أمامه ذاهلا وعاجزا عن الفهم والتفسير؟

والخلاصة هي أننا لا نحسن في بعض الأحيان فهم دخائل نفوس شركاء الحياة وحقيقة مشاعرهم تجاهنا وتجاه الحياة المشتركة التي تجمع بيننا، ونظن في أحيان عديدة أن ركود سطح الماء في بحيرة الحياة يعني صفاء الجو وخلو القاع مما يمور فيه من تيارات متضاربة ودوامات عنيفة واحسب أن هذا هو ما حدث في حياتك بالرغم من أن زوجات كثيرات قد يغبطن زوجتك على شريك محبّ متعاون ومعطاء مثلك يعد الشطائر لأبنائه والإفطار لزوجته في الصباح.. وينظف البيت دونها. ويجوب شوارع المدينة طولا وعرضا لشراء احتياجاتها من أماكن محددة

على مسافات بعيدة وتشهد له حتى والدتها بأنه لا يقصر في أداء واجباته تجاهها ولو في حالات الخصام معها..

إذن ما هي المشكلة يا صديقي؟

المشكلة هي أن زوجتك هي التي ملكت عليك قلبك وعقلك وكيانك طوال السنوات الماضية وإنك لم تملكها بنفس هذا القدر ولا ببعضه.. أو حتى بشيء منه.. والحب كالدنيا التي قال عنها الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إذا أقبلت على إنسان كسته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه!

ولقد أدبر عنك حب زوجتك لك فسلبك للأسف محاسن نفسك ولم يكسك محاسن غيرك، وأسهمت الانفلاتات العصبية والذاكرة «الحافظة» لزوجتك في تضخيم العيوب حتى عدتها «خطايا» لا يجوز التجاوز عنها، مع أنه لا يخلو إنسان على وجه الأرض بمن فيهم زوجتك من قدر من العصبية والانفعالية في بعض الأحيان.. لكن الحب قلب غفور.. والكره قلب حقود لا يغفر ذنبا ولا ينسى إساءة، وهكذا راح الحجر الصلد يتشكل تحت السطح ببطء إلى أن جاءت اللحظة الفاصلة وانفجر الموقف بينكما فأما هذه اللحظة الفاصلة فالله سبحانه وتعالى هو وحده من يعلم إذا كانت هناك «أسباب خارجية» قد عجلت بظهورها إلى السطح أم لا.. غير أن ظاهر الأمر وإصرار زوجتك على الطلاق إلى حد التهديد بالانتحار ومطالبتها لابنيها بإقناعك به.. كل ذلك يوحي بأن الأمر لم يعد تجدى معه أي محاولات للإقناع أو المناشدة.. وفي ظني أنها لن تتنازل عن تمسكها بطلب الطلاق.. مهما فعلت أنت أو تمسكت بها وتذللت لها لكي تقبل بالعودة إليك وفي كل الأحوال فإنك لا تستطيع أن تمسك عليك زوجة كرهت الحياة معك ولم تقدّر لك كل ما قدمت لها من حب وتضحية وعطاء على مر السنين، وبلغت بها كراهيتها لهذه الحياة أن ضحت في سبيل الخلاص منها، بسعادة ابنيها واستقرارهما وحبهما لها.. والمرأة إذا بلغت هذا الحد من الإصرار على رفض حياتها الزوجية ولو ضحت في سبيل ذلك بمشاعر ابنائها تجاهها، فإنه لا يعدل بها عن هذا الإصرار شيء، ولا هو من الحكمة إرغامها في مثل هذه الظروف على القبول بحياتها الزوجية مرة أخرى.. لأن ذلك لن يعني في الأغلب الأعم إلا الحفاظ على شكل الأسرة دون جوهرها.. وقد يفتح الباب لشرور وآثام أخرى.

فإذا كنت أقدر لك حرصك على أبنيك وأسرتك ومحاولتك المخلصة لإنقاذ حياتك الزوجية من الانهيار، فإنى أذكرك على الناحية الأخرى بأنك قد أديت واجبك في السعي للحفاظ على أسرتك ورأب صدعها وحماية استقرار حياة أبنائك، لكن ليس كل ما يرجوه الإنسان لنفسة يستطيع أن يحققه لها حين يتعلق الأمر بإرادة طرف آخر لا يشاركه مثل هذا الحرص على الحياة الزوجية وهذه الرغبة المالية في استمرارها وانقاذها من الانهيار فلا تمتهن نفسك أكثر من ذلك يا صديقي في استجداء عودة زوجتك لك ولابنيها، وأقبل بما ليس منه بد - ولو مؤقتا - عسى أن تعلمها الأيام ما لم تكن تعلم.. أو يعوضك الله عنها وعن حياتك السابقة معها خيرا كثيرا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الزلزال المدمر!

قرأت رسالة «الأرض العطشى» للزوجة التي تشكو من انشغال زوجها عنها بأبحاثه ودراساته فكان من أمرها أن بدأت تشعر بالضعف تجاه أحد زملائها بالعمل وتستجيب لكلمات الاعجاب والعاطفة التي يبثها لها.. كما قرأت أيضا ردك الصادق عليها ونصيحتك المخلصة لها بألا تنسى التزاماتها الدينية والخلقية وأن تحاول أن تبعث الدفء في علاقتها بزوجها وتوقف كل اتصال بينها وبين زميلها هذا الآن وعلى الفور قبل أن تنجرف خطوة أخرى في الطريق المنحدر حيث تقودها كل خطوة عليه إلى أخرى أكثر انحدارا ولا يكون الرجوع منه أبدا بغير خسائر جسيمة على الجبهة الأخلاقية والعائلية والإنسانية. وأريد أن أروى لهذه السيدة قصتي التي قد لا يجرؤ رجال كثيرون على أن يرووها لغيرهم لكي أسهم معك في تبصيرها بما تفعل، وهي مازالت على رأس المنحدر.. وقبل أن تخطو خطوات أخرى على طريقه المائل. فأنا رجل في الخمسين من عمرى متزوج ولى ثلاثة أبناء ومن مستوى اجتماعى ووظيفي متوسط، ومنذ اليوم الأول لزواجي احبتني زوجتي حبا ملأ عليها كل كيانها وأحببت أنا زوجتي الجميلة بكل مشاعري، وسعيت دائما إلى إرضائها وإسعادها.. وأشعرتني هي على الدوام بثقة شديدة في نفسى، وبحبها الكبير لى، وأعجبني فيها دائما إيمانها العميق بربها الذي تتكلم عنه دائما وكأنما تراه، وتعلمت منها أن أدفع زكاة المال لأول مرة في حياتي، وأدينا فريضة الحج معا، ولقد كانت زوجتي طوال رحلة زواجنا أكثر اهتماما مني وأكثر طلبا لعلاقتنا الخاصة، ولم أكن أنا حسبما أعتقد وطبقا لملاحظاتي على غيرى مقصرا في هذه الناحية غير أنها من فرط حبها لى كانت تريدني كثيرا، وتصاب بالإحباط أحيانا بسبب ذلك..

ومضت حياتنا هادئة وسعيدة بالرغم من بعض جوانب الإحباط المتبادل بيننا، حيث كانت زوجتي لا تسعد أبدا بأي لقاءات جماعية أو مناسبات اجتماعية تجمعنا مع غيرنا، وتفضل دائما أن نكون وحدنا سواء بقينا في البيت أو خرجنا معا كما كانت أيضا تميل إلى كثرة النوم وتتأخر أحيانا عن القيام ببعض أعباء البيت، غير أن القافلة السعيدة كانت تسير في طريقها وكبر الأبناء وأصبحوا موضع حبنا الأكبر ومصدر سعادتنا المشتركة وباتوا مع زوجتي هم أهم شيء في الوجود بالنسبة لي.. ثم لاحظت أن زوجتي قد بدأت تكثر من القراءة في الكتب الدينية، حتى أصبحت لا تقرأ سواها.. وأنها تستغرق في التفكير الصامت لفترات طويلة ويظهر على وجهها السهوم وعلامات انشغال الفكر بهم كبير، إلى أن جاء يوم واصطحبتني زوجتي إلى غرفتنا لأنها تريد أن تصارحني بشيء مهم ثم أغلقت الباب علينا وتوجهت إليها بسمعى وبصرى.. لأعرف ماذا يشغلها فإذا بها تنظر إلى نظرة طويلة كسيفة ثم تغض بصرها وتقول لى بنبرة كئيبة هذه العبارة القاتلة:

- فلان، أريد أن أعترف لك بجرم كبير.. لقد أخطأت خلال الشهور الماضية مع فلان؟

وارتجّ عليّ الأمر لحظات فلم أفهم ماذا تقصد أو خيل إلى ذلك فسألتها عما تعنيه بقولها ذلك.. فأجابت بالعبارة التالية: كما فهمت! فيخيل إلى أن زلزالا مدمرا قد ضرب الأرض كلها وهزها هزا عنيفا من أركانها الأربعة..

وبحثت عن صوتى فلم أجده.. وحين وجدته بعد لحظات سألتها في خوف وإشفاق وأنا أتمنى في أعماق نفسي أن تكون الاجابة بالنفي:

- هل..؟ لكنها أجابت: نعم!.. وكررت السؤال ذاهلا من جديد: هل...؟ وكررت هي الاجابة القاتلة بنفس الحروف البغيضة نعم، وأضافت إليها: وقد ندمت على ذلك وتبت إلى الله فانظر ماذا تفعل!

ومادت الأرض بي من جديد، ورأيت كل ما بنيت خلال رحلة السنين وعشت من أجله ينهار أمامي ويتحول إلى حطام وخراب.. بيتي.. وأسرتي.. وأقرب الناس إلى قلبي. ورأيت أولادي في هذه اللحظة بلا أم لهم بغير ذنب جنوه وعلا الطنين في أذنى:

لماذا! لماذا فعلت بي وبأولادها ذلك!.. وكانت الإجابة المخيفة أيضا أنه للأسف لأحقر سبب من الأسباب..!

ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أنهال عليها ضربا.. ولم تبد هي أية مقاومة أو اعتراض على ضربي لها.. وإنما تلقته صامتة.. ساكنة.. كأنما تريدني أن أطهرها من إثمها بهذا الضرب العاجز، ثم انهرت باكيا كالطفل الصغير وأنا أردد في ذهول: أنت... أنت؟ لماذا..؟ لماذا..؟

وهي لا تتكلم ولا تجيب ولا ترفع عينيها في وجهي، وفي لحظة قدرية سوداء رأيت كل القصص والحكايات والنكات التي سمعتها وتبادلتها مع الأصدقاء مازحين عن المواقف المماثلة خلال رحلة العمر تنطبق علي.. وليس «على الآخرين» وحدهم كما كنت أعتقد من قبل، وتمنيت من قسوة الألم لو أنها كانت قد ماتت قبل أن يحدث ذلك، أو لو أنني كنت قد مت قبل أن أعرفه، ولم يعد يتراءى لي في مخيلتي أو يتردد في سمعي طوال الفترة التالية سوى صوتها وهي تقول لى إنها لا تعرف كيف حدث ذلك، وإن شيئا ما خاطئا قد حدث في عقلها فأزاغه الكلام الحلو وتركتني هي لنفسي لكي أنظر ماذا أفعل بعد أن فتحت عليّ أبواب الجحيم على مصارعها.. وحاولت بكل ما أملك من طاقة وجهد أن أغفر وأصفح بلا جدوى.. وقرأت الكثير والكثير عن التوبة وشروطها.. والعفو الذي هو من شيم الكرام.. لكني لم أستطع أبدا يا سيدي ولم أقدر، وبعد فترة ليست طويلة من العذاب المرير طلقتها وتقبلت هي الطلاق في سكون قائلة لى إنها سوف تبحث في نفسها عن الإنسانة الصالحة التي كانتها من قبل وتستعيدها بالقراءة في الكتب الدينية أو بالعلاج النفسي إذا تطلب الأمر ذلك. واضطربت حياتي وحياة أبنائي اضطرابا شديدا وعشت فترة من أسوأ فترات العمر دامت عاما ونصف عام..

وكانت علاقتي بها خلالها حيادية وفي حدود علاقة زوجين مطلقين بينهما أبناء يهمهما أمرهم، ولمست خلال هذه الفترة صدق توبتها وعمق ندمها على ما فعلت..

وكان سؤالها الصامت يتراءى لي دائما في عينيها كلما التقينا: هل صفحت؟

وبعد عام ونصف عام من الانفصال اعدتها إلى عصمتى.. ورجعت هي شاكرة لكي تعوض ابناءها عما فعلته بهم، وبالرغم من الألم الذي لم أبرأ منه أبدا منذ ذلك اليوم وسوف يدوم في اعتقادي إلى آخر لحظة في عمري فإني لم أندم أبدا على هذا القرار.

والآن وبعد 10 سنوات من هذا اليوم الأسود وجدت في نفسى القدرة على أن أروي لأحد حقيقة ما حدث لي في تلك الأيام البعيدة لكي أطلع صاحبة رسالة «الأرض العطشى» على الجانب الآخر لمثل هذه القصة التي قد تنجرف إليها.. وتتوهم أنها قد تكون قصة عابرة بلا خسائر حقيقية وأيضا لكي أسألها هل تقبل لنفسها مثل هذا السقوط؟ وأقول لها إنها إذا خطت خطوة أخرى على هذا الطريق المنحدر ثم حاولت الرجوع منه.. فإن شيئا لن يعود أبدا كما كان قبل ذلك، وأنا الدليل الحي على ذلك فلقد مرت عشر سنوات الآن ولم أبرأ بعد من الم خيانة زوجتي لي بالرغم من صدق توبتها وندمها عليها والتزامها الشديد بعد ذلك، فهل يستحق زوجها منها كل هذا الجحيم؟ وهل يستحق شيء في الحياة كلها أن يؤلم أحد أحدا مثل هذا الإيلام الرهيب؟ وهل يستحق شىء أن يحيل من أجله أى زوج أو أي زوجة حياة شريكه إلى عذاب كعذاب الجحيم لأمر عارض من عوارض الدنيا الزائلة؟ إنني أريد أن أقول للجميع أن عليهم أن يحرصوا على شركائهم في الحياة رجالا ونساء، وأن يشعروهم عملا وقولا بالعاطفة، وألا يركن أحد إلى الظن القديم بأن مثل هذه المصائب لا تحدث إلا للآخرين فقط.. كما كنت وغيري نظن.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لو حاضرنا ألف محاضر عن عمق ما يشعر به الرجل من ألم مكتوم ومرارة حسيرة الخيانة شريكة حياته التي يحبها ويأمن إليها ويمضي في الحياة مطمئنا إلى صدق إخلاصها له، لما استطاع أن يشركنا معه في بعض ما أشركتنا أنت فيه من مشاعر وأحاسيس صادقة ومؤلمة. ولا عجب في ذلك يا صديقي لأنه ليس المعزى كالثاكل.. «ولا يعرف الشوق إلا من به ألم» كما يقول الشاعر..

فإذا جاز لي أن أضيف إلى ما رويت شيئا فلعلي أقول فقط إن عمق جرح الخيانة الذي لا يندمل في نفس الرجل قد يماثله في كثير من الأحيان عمق جرح الخيانة في نفس المرأة المحبة لشريكها، غير أنه قد يخفف منه بالنسبة لها أمران يتفقان مع فطرتها التي فطرها الله سبحانه وتعالى عليها.. الأول هو أن خيانة الرجل لها وإن أدمت قلبها ومشاعرها وهزت قيمها وثقتها في نفسها، فإنها لا تمس شرفها أو عرضها، والثاني أنها بطبيعتها الأنثوية لا تستشعر غضاضة في أن تبوح بشكواها من خيانة شريك القلب أو الحياة لغيرها، وإنما تبث نجواها وهمها وتفرج عن بخارها المكتوم في صدرها، وتبلل الألم الجاف بالدمع.. فتتخفف من كثير من

ضغوط الألم النفسية عليها فتمارس بذلك وظيفة الإفضاء النفسية وترشح جرحها المؤلم للشفاء بمعدلي أسرع، أما الرجل فإنه للأسباب المفهومة يخجل غالبا من البوح بخيانة شريكة حياته له ويتكبد آلامها وحيدا وصامتا ويتحفظ أشد التحفظ في الحديث عن ذلك، لأنه يتردد بين الشكوى منه وبين الخوف من فقد اعتباره لدى الآخرين إن هو فعل ذلك. فإذا كنت أنت قد بحت بألمك المكتوم مدفوعا برغبتك النبيلة في إعادة كاتبة رسالة «الأرض العطشى» إلى الطريق القويم، فلقد احتاج الأمر منك إلى عشر سنوات أو تزيد حتى استطعت - ومن وراء ستار - التنفيس عما يعتمل في صدرك من الأحزان القديمة وجاءت كلماتك عنها مصهورة بنار الألم لتلفت انتباهنا إلى عمق الجرح وبطء الشفاء بالرغم من بعد الذكرى، تماما كما عبر عن ذلك من قبل شكسبير العظيم على لسان عطيل حين ظن بزوجته الخيانة فانهار أمامها باكيا وهو البطل المغوار الذي خاض المعارك وجالدته السيوف وقال لها قبل أن يهم بقتلها:

- أستطيع أن أتحمل بشجاعة كل شقاء الحياة من فقر ومرض وعار وحروب لكن خيانتك لي قد حطمتني تحطيما!

غير أنه من مواقف الحياة يا صديقي ما تدعونا ضرورة مواصلة العيش إلى عدم السماح لها بإفساد أيامنا علينا طوال العمر، وإلى أن ندرب أنفسنا على طرد ذكرياتها المؤلمة عن اذهاننا كلما تسللت إلينا وكدرت علينا صفو الأيام، ذلك أن اجترار المواقف المؤلمة والأفكار المحزنة القديمة.. إنما يؤدى بنا إلى تجدد عدائنا النفسي لرموزها وأبطالها الذين يتراءون لنا في الجوار أو يتحركون أمامنا وهم يظنون أننا قد صفحنا عنهم ونسينا لهم بالفعل ما كان من أمرهم معنا، وإذا تجدد هذا العداء النفسي ولو للحظات فإنه لابد أن ينعكس سلبيا على تعاملنا معهم لفترة مؤقتة ويفسد علينا صفاء علاقتنا بهم.. ولقد قال أحد علماء النفس: إن الأفكار والخبرات والذكريات التي نعيشها تسجل على مواد بروتينية معقدة في الدوائر العصبية للمخ كما تسجل الأغاني على الأشرطة والأسطوانات، وأن تكرار اجترارنا لهذه الأفكار والذكريات المؤلمة يؤدي إلى تثبيتها ونحن في أشد الأوقات حاجة لدواعي الصحة النفسية إلى نسيانها، كما يؤدي أيضا إلى استثارة بعض ما يرتبط بهذه الذكريات من مواقف وخبرات مماثلة لها من الناحية الوجدانية، ولهذا فلابد من استخدام قوة العقل في طرد الأحزان القديمة والذكريات الأليمة السابقة، كلما هاجمتنا.. أو تسربت من ثغرات الضعف النفسي إلينا لكي نعين أنفسنا على نسيانها وعدم التأثر بمؤثراتها السلبية في تعاملنا مع من لا مفر لنا من التعامل معهم من رموزها، ولأنه لا عائد لنا من اجترارها سوى الضيق النفسي والاكتئاب والتعاسة وإحياء المرارات القديمة، وكنا قد ظننا أننا قد برئنا منها فضلا عن أن اجترارنا لها لن يغير من الأمر الواقع شيئا ولن يحقق لنا أبدا حلم البشرية العاجز في العودة بالزمن إلى الوراء، لكي نتفادى الأخطاء التي وقعت في الزمن القديم ونتجنب آلامها..

وأنت يا سيدي قد اخترت عن وعي وإرادة الصفح والنسيان بعد ما لمسته من عمق الندم وصدق التوبة لدى شريكتك.. وأعانك على ذلك بغير شي أنها قد اختارت الطريق الصعب الذي لا يقدر عليه غالبا إلا أولو العزم من الرجال والنساء..

فأرادت أن تتطهر من أمسها بمصارحتك به والاستبراء منه لديك، وقد كان في مقدورها حتى لو كانت قد ندمت على خطيئتها وأقلعت عنها أن تكتم عنك أمرها فلا تعترف به أبدا إلى نهاية العمر، لكنها أدركت من قراءاتها عن شروط التوبة الصحيحة أنه إذا كانت المعصية بين العبد وربه فهي ثلاثة هي: أن يقلع عنها.. وأن يندم على فعلها وألا يرجع إليها أبدا، فإذا كانت تتعلق إلى جانب ذلك بحق إنسان آخر فهي أربعة هي هذه الشروط الثلاثة مضافا إليها شرط رابع هو أن يبرأ من حق صاحبها لديه، فأرادت هي أن يكون التطهر كاملا، ولو تحملت تبعاته الجسام، مصداقا لقوله تعالى: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما) صدق الله العظيم (النساء: ١٧)

وهذا وحده يقطع بان الخيانة لم تكن طبعا متأصلا فيها.. وإنما كانت خطأ جسيما في حياتها سرعان ما ندمت عليه ورضيت عن طيب خاطر بتحمل تبعات الاستبراء منه، ولو دفعت في سبيل ذلك الثمن غاليا من كل الجوانب..

وها أنت تقول إنك بعد مرور عشر سنوات على هذه المحنة فإنك لم تندم على قرارك بإعادتها إلى عصمتك.. وديننا القويم يرشدنا إلى أنه من أدب المؤمن إذا صفح عن خطأ المخطئ في حقه ألا يعيره وألا يذكره به من بعد توبته عنه لكي يكون بذلك عونا له علي التزام الطريق القويم وليس عونا للشيطان عليه فيرجع عنه، وإذا كان هذا هو الحال مع من ارتكب الخطأ.. فكيف يكون الأمر مع ضحيته حين «يذكر» نفسه به كل حين.. ويجترّ آلامه وذكرياته المحزنة كأنما يجلد نفسه بخطأ غيره في حقه إلى ما لا نهاية!

إنني أضع رسالتك تحت أنظار كاتبة رسالة «الأرض العطشى» وغيرها من القراء والقارئات.. لكي يستفيدوا بخبرتها المؤلمة وبما تطلعنا عليه من تجربة إنسانية صادقة، وأحيي فيك نبل المقصد وصدق النية.. وشكرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كشف المستور!

أثارتني رسالتا «الزلزال المدمر» و «الأرض العطشى» من قبلها ودفعني ذلك أن أكتب عن الطرف الثالث في هذه الثلاثية وهو العشيق.. ولكنني قبل أن أقص روايتى فإن لي تعليقا على ردكم الذي ترون فيه ضرورة مكاشفة الزوج كى تكون التوبة حقيقية والعقاب رادعا والتسامح فضلا.. وتعليقى مأخوذ عن فتوى قرأتها لفضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر في موقف مماثل وظروف مشابهة إذ هو يرى أن الاحتفاظ بالسر بعد التوبة الحقة، هو الأمر المفضل ولكي يعاني مرتكب الذنب «الزوجة هنا» وحده الام اثمه وجريرته فالكبت وعدم البوح هو عقاب في حد ذاته - كما أشرتم - وليس واجبا، ولا عدلا أن يقاسى الطرف الآخر «الزوج» عذاب فجيعته في اخلاص زوجته حتى وإن كان سببا غير مباشر فيما وصلت إليه الأمور..

أما قصتي فهي أنني كنت في الثامنة والثلاثين من عمرى انتقلت إلى إدارة جديدة في عملى تعرفت على الزملاء والزميلات فيها وسرعان ما أصبحت شقيقا لهم ولست مجرد زميل جديد وافد عليهم، وظل هذا عهدي معهم حتى بعد قيام علاقة لي مع احداهن وهي السيدة التي تملك قلب الجميع نظرا لطبيعتها الملائكية شكلا وموضوعا بأخلاقها الرفيعة وإجادتها عملها وأدائه على وجه الأكمل من حيث الجدية والاتقان، وللحق فإني لم أبذل أية محاولة مني للإيقاع بها وإنما كان هناك اهتمام زائد بها في حدود الزمالة والشعور الأخوي وصل إلى رفع الكلفة بيننا فقامت بإعطائي رقم تليفون منزلها وحدث تقارب روحى بيننا واتخذت علاقتنا بعدا أكبر من نطاق العمل، وخرجنا معا في أوقاتنا الخاصة وتطورت العلاقة بيننا حتى أصبحت المعني الكامل لحياتي كما ظننت في ذلك الحين نظرا لفراغ حياتي من الناس والعاطفة ولأن حبا كبيرا - كالذي تملكني - تجاهها لم أجده في حياتي من قبل وربما للآن.. واستمرت علاقتنا خمس سنوات كنا نلتقي خلالها مرة أو مرتين أسبوعيا وظلت العلاقة سرا لم يطلع عليه أحد ولم ينكشف.. وذات يوم انقطعت عني هذه السيدة..

وحاولت أن أعرف سر انقطاعها عني، ثم أدركت أنها قد قررت وضع حد لعلاقتنا وخطئنا المشترك الذي استمر طوال هذه الفترة، ولم تصارحني بذلك لكني أدركته وقررت أن أساعدها عليه، وعلمت فيما بعد أنها لم تستطع الاستمرار في الازدواجية التي كانت تمضي عليها حياتها خلال قصتنا معا، وأنها قد استراحت لهذه النهاية واستعادت سلامها النفسي، والسؤال الآن هو: هل كشف المستور الذي لم يشأ الله سبحانه وتعالى فضحه كما قال فضيلة الإمام هو الأجدى.. أم البوح به.. واطلاق البركان الخامد ليصيب بحممه الأبرياء هو الأصح؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

عفوا فإني لم أقل «بوجوب» مكاشفة الزوجة لزوجها بما كان من أمرها لكي تكون التوبة حقيقية.. وإنما فسرت فقط تصرف زوجة كاتب رسالة «الزلزال المدمر» واعترافها له بخيانتها بأنها قد رغبت في أن تبرأ من حقه عليها لكي يستريح ضميرها.. وهذا هو اختيارها ولكل إنسان اختياره، لكن هناك فرقا كبيرا بين الرأي وبين التفسير والتحليل..

وردا على بعض التساؤلات المشابهة فإني أورد هنا نص فتوى أخرى سابقة صدرت عن لجنة الفتوى بالأزهر ردا على تساؤل زوجة كان لها ماض قبل الزواج ورغبت في أن تبوح به لزوجها، تقول الفتوى وهي بعنوان: « أكرمها الله بالستر وتريد فضح نفسها »: إذا كانت الزوجة قد أخطأت قبل زواجها وهي فتاة فلا يصح أن تقص على زوجها سوءاتها في ماضيها لأنه ينظر إليها على أنها ملاك طاهر وإذا ما أخبرته بماضيها القبيح ربما تغيرت نظرته إليها وربما كرهها وطلقها.. يقول الرسول : « كل أمتي معافي إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل عملا بالليل وقد بات يستره ربه فيصبح فيقول للناس فعلت البارحة كذا وكذا »

وعلى هذا فإن على هذه السيدة أن تتوب إلى الله توبة صادقة وألا تخبر زوجها بماضيها المؤلم الذي يؤدي إلى طلاقها، ولا يعتبر كتمان هذه الأمور السابقة للزواج خيانة للزوج، لأن المعصية من الإنسان بينه وبين ربه فلا يصح أن يطلع عليها غير الله تعالى..

هذا هو نص الفتوى.. ولا تعليق لى عليها.. وأعتذر عن إغلاق باب الحديث في هذا الموضوع لحساسيته المعروفة.. وشكرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العواصف الهوجاء!

أريد أن أروي لك قصتي مع الزمن والحياة.. فلقد تعرفت بزوجتي في حفل زفاف شقيقتي.. رأيتها ولفت نظري إليها جمالها واعتدادها الواضح بنفسها وتعارفنا، وبعد فترة قصيرة تمت خطبتنا، وكنت وقتها مجندا بالقوات المسلحة.. وانهيت فترة تجنيدي وتزوجنا فلم يمض وقت قصير حتى بدأت الخلافات بيننا على أتفه الأسباب واكتشفت أن ما ظننته اعتدادا بالنفس ليس في حقيقته سوى غرور شديد وتكبر أصيل في شخصيتها ولا علاج لهما، وكان من أمثلة خلافاتنا التي تقيم زوجتي الدنيا ولا تقعدها من أجلها أنني كنت بعد مغادرتي لبيتي في طريقي إلى عملي أختلس بضع دقائق أتوجه خلالها إلى مسكن أمي لرؤيتها واحتساء فنجان من القهوة معها.. وكانت أمي تسعد بهذه الزيارة القصيرة جدا لأنني أكبر أبنائها.. ولأنها تعيش وحيدة في مسكنها بعد رحيل أبي عن الحياة ومع ذلك فلقد كانت زوجتي تستشيط غضبا لزيارتي لها..

واضطررت لأن أتكتم هذه الزيارات عنها.. وأن أقوم بها في السر كأنني أرتكب فعلا شائنا، ومع ذلك فقد كانت تعلم بها وتثير عليّ العواصف الهوجاء من أجلها، ومضت الأيام بنا وأنجبنا طفلتنا الأولى واضطررت للعمل في الخارج بضع سنوات لإسعاد أسرتي الصغيرة، وحققت لزوجتي كل ما طلبته من أجهزة حديثة.. وأثاث جديد والانتقال إلى شقة أفضل وكتبت كل شيء باسمها لأدخل الطمأنينة إلى قلبها، ومرت السنوات ورجعت من غربتي.. وأصبح عدد الأبناء ثلاثة وضاع معظم مدخرات سنوات الغربة في شركات توظيف الأموال.. ولم يبق لي إلا دخلى من وظيفتي بالقطاع العام، وكبرت الابنة الكبرى وتخرجت في كليتها وأصبحت شابة جميلة يتهافت عليها الخطاب، وكانت زوجتي ترغب في تزويجها في أسرع وقت فتقدم إليها مهندس شاب وسعدت زوجتي به وتمت الخطبة، لكنها ما إن تمت حتى بدأت تفتعل المشاكل معه لأتفه الأسباب حتى ضاق ذرعا بتكبرها وصلفها وانسحب، ومن بعده تقدم لابنتى طيار شاب وتكررت معه نفس القصة بنفس تفاصيلها ثم تقدم لها بعد ذلك طبيب ولم يكن حظه مع زوجتي أفضل من سابقيه فلقد سعدت به في البداية ثم لم تلبث أن افتعلت معه المشاكل لكي تطفشه كما حدث مع الآخرين..

إلى أن جاء الخطيب الرابع عن طريق شقيقتي الصغرى..

وطارت به زوجتي فرحا لأنه ميسور الحال ماديا وصاحب شركة واهتمت به اهتماما شديدا وتوثقت العلاقة بينهما حتى شعرت أنا الأب ببعض الغيرة لحميمية علاقة خطيب ابنتي بزوجتي، ومع ذلك فقد تعاليت على هذه الغيرة طلبا لمصلحة ابنتي.. وأملا في ألا تسعي زوجتي إلى تطفيشه كما حدث مع الشبان الثلاثة السابقين، وأسعدني أن لاحظت أن ابنتي قد أحبت هذا الخطيب وتمسكت به، وتم عقد قرانهما ونحن في قمة السعادة.. لكن عقد القران كان للأسف بداية النهاية لفترة العسل في علاقة زوجتى بخطيب ابنتها فقد دبت الخلافات كالعادة بينهما لغير سبب جوهرى، وتمادت زوجتي كعادتها في إهانته عبر التليفون حتى أقسم الشاب ألا

يدخل بيتنا مرة أخرى بعد هذه الإهانة، وفشلت كل محاولاتنا لإصلاح الحال بينهما بسبب تمسك كل منهما بأنه لم يخطىء ورفضه الاعتذار للآخر، وفعل التكبر والغرور اللذان يحكمان شخصية زوجتي فعلهما فتحولت مشاعرها تجاه الخطيب الذي كانت تطير به فرحا إلى كراهية شديدة، وحاولت تدمير علاقته بابنتي ومنعتها من لقائه أو الاتصال به ولو عن طريق التليفون، ورفضت ابنتي أن تستسلم هذه المرة لرغبة أمها في تدمير علاقتها بخطيبها الرابع فنشبت الخلافات الحادة بينها وبين أمها.. واستمرت الخلافات دون بادرة أمل في تقارب وجهات النظر ووصلت إلى حد الضرب والإهانة من جانب الأم لابنتها، واستقطبت زوجتي ابنتها التي تكرر صورة أمها في طباعها وأخلاقها إلى جانبها فانضمت إليها ضد شقيقتها.. ووقفت أنا بجوار الجانب الضعيف في الخلاف وهو ابنتي، ورأيت حسما للنزاع الفصل بينها، وبين أمها بعض الوقت فاصطحبتها للإقامة لدي خالها حتى تهدأ النفوس. وأقامت ابنتي في هذا «المنفى» لمدة شهر ثم شعرت بالحنين إلى أمها فرجعت إلى بيتها وعدت أنا ذات يوم إلى البيت ووجدتها فيه تتحادث مع أمها فسعدت بذلك وأملت خيرا ورحبت بابنتي وقلت لها إنها قد أنارت بيتها بعودتها إليه.. فإذا بزوجتي تقول لي أمامها في جفاء إنها مجرد «ضيفة» وسوف تعود من حيث أتت، وامتقع وجه ابنتي حين سمعت ذلك.. وغضبت أنا وقلت لزوجتي أن ابنتي لن تخرج من بيتى.. فإذا بها تجيبني بأنها لن تخرج منه وحدها وإنما وأنا أيضا معها! ونشبت بيننا مشاجرة عنيفة انتهت بخروجى أنا وابنتي من البيت، وإقامتنا لدي حماتي على أمل أن تنقشع الغمة وتستعيد زوجتي رشدها.. لكن هيهات أن يحدث ذلك فلقد طالت ضيافتي أنا وابنتي لدى جدتها ستة أشهر كاملة.. وانتهي خطيبها خلال هذه الفترة من إعداد عش الزوجية، وتحدد يوم الزفاف في نوفمبر الماضي.. لكن زوجتي كانت تغلى بالغضب لذلك وتقسم بأنها سوف تحرم ابنتها وخطيبها من فرحتهما في هذا اليوم، وقبل أسبوع واحد من موعد الزفاف توجهت زوجتي مع شقيقها إلى بيت والدتهما حيث تقيم ابنتي، واصطحباها بالقوة وهي بقميص نومها إلى سيارة الخال وسط توسلات الجيران لهما أن يرحماها ويدعانها لشأنها وأركباها سيارة الخال بالضرب والاهانة وعادا بها إلى مسكن الأم، وهناك انهالت عليها الأم ضربا بخرطوم المياه وهي تتوعدها بأنها ستشعل فيها النار وهي نائمة لكيلا تتزوج «الواد بتاعها» هذا!

وعلمت بما حدث وأنا في عملي فغضبت غضبا شديدا وتوجهت إلى منزلي وأنا أحمل السلاح لأدافع به عن ابنتي، فمنعني الجيران من الصعود إلى مسكني وقالوا لي إن المسكن خال من سكانه والجميع الآن في المستشفى القريب لأن ابنتي قد سقطت من شرفة الدور الرابع الذي نقيم به! وطار صوابى حين سمعت ذلك وتوجهت للمستشفى فوجدت ابنتي في حالة خطيرة والدماء تنزف منها، فما أن رأتني حتى بكت وقبلت يدي وهي تطلب مني أن آخذ لها بحقها ممن آذوها ثم راحت في غيبوبة وتم نقل ابنتي إلى مستشفيي آخر خاص وتبين أنها أصيبت بكسر في الحوض والكوع وقصبة الساق والكاحل، كما أصيبت أيضا بتفتيت في الطحال من شدة الضرب، وأمام وكيل النيابة قالت ابنتي إنها ألقت بنفسها من الدور الرابع.. كى تنقذ أمها من أية مسئولية ولم تشر إلى مسئولية أمها وما لها من دفعها إلى ذلك بما

ارتكباه معها من ضرب وإهانة.. والان فقد أنعم الله بالشفاء على ابنتي من الاصابات التي لحقت بها.. ونحن نستعد الان لإتمام زفافها إلى عريسها الشهم ذي الأصل النبيل، الذي تألم غاية الألم لما تعرضت له خطيبته من إيذاء لتمسكها به ووقف إلى جوارها في محنتها وأقسم أن يعوضها عن كل ما لقيت من أجله من أذى واضطهاد..

وإني لأكتب لك هذه الرسالة لكي تكون عبرة لبعض الأمهات المتكبرات المستبدات بأبنائهن لكي يعرفن أن القسوة والغرور والتكبر لا تفيد ولا عائد لها إلا خروج الأبناء على طاعتهن بعد أن يعجزوا عن استمرار الاحتمال إلى النهاية وأحسب أنك تشاركني الرأي في ذلك.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

من المؤسف حقا أن تتدهور العلاقة الإنسانية بين أم وابنتها إلى هذا الحضيض الذي تحاول معه الأم فرض إرادتها على الابنة بالقهر النفسي والإيذاء البدني حتى لتضطر الفتاة إلى إلقاء نفسها من شرفة بيتها تخلصا من هذا الإيلام.

نعم من المؤسف حقا أن تتدهور العلاقة بينهما إلى هذا الدرك، ويضاعف من الأسف أن أسبابه ليست أسبابا نبيلة تتعلق برؤية الأم لما فيه خير ابنتها ومصلحتها وإشفاقها عليها من الارتباط برجل ترى أنه لن يكون الشخص الأمين الذي يرعاها ويحفظ أمانتها ويحقق لها سعادتها.. وإنما ترجع أسباب هذا التدهور لاعتبارات إنسانية تتعلق بالأم نفسها.. وما تراه هي ماسًّا بكرامتها من وجهة نظرها، وهو رفض هذا الخطيب الاعتذار لها عما لا يرى نفسه مخطئا فيه..

فإذا كنا لا نعرف الكثير عن شخصية هذا الخطيب لكي نحكم له أو عليه، فإن ما تقوله أنت عن زوجتك يرجح - إذا كان صادقا- أن تكون هي المسئولة عن الجانب الأعظم من أسباب سوء العلاقة بينهما، استطرادا لصلفها وغرورها ورغبتها الظاهرة في تطويع الجميع لإرادتها، واستطرادا أيضا «لتاريخها» مع الخطاب السابقين الذين ترحب بهم في البداية ثم لا تلبث أن تنقلب عليهم.

والإنسان «تاريخ» وليس موقفا عابرا نحكم به عليه، وتاريخ زوجتك مع خطاب ابنتها السابقين يرجح للأسف أن تكون هي المسئولة هذه المرة أيضا عن تدمير علاقتها بالخطيب الأخير، ونحن لا نستريح بالفعل لسوء العلاقة بين الأم وخطيب ابنتها، أيا كان الجانب الذي يتحمل المسئولية عن تدهورها، لما لذلك من آثار سلبية تنعكس بالضرورة على علاقة الخطيبين ثم الزوجين في المستقبل، ونطلب دائما من الخطيب أن يحرص على إقامة علاقة طبيعية حميمة وعادلة مع أم فتاته لكي تكون عونا له في حياته المستقبلية وليس العكس. لكن ذلك لا يعني على الناحية الأخرى أن يقبل أي خطيب بإهانات الأم له، أو بمحاولتها قهر إرادته وضمه إلى شبكة الخاضعين لإرادتها وتكبرها وغرورها، وإلا تنمرت الأم له وانقلبت عليه ودمرت علاقته بابنتها، ذلك أن لكل إنسان كرامته الشخصية التي يحق له ألا يفرط فيها أو

يقبل عليها ما لا يقبله الحر لنفسه حتى ولو كان عاشقا متيما للابنة. والحق أن التكبر والعناد وصلابة الرأي.. وتوهم احتكار الحق دون الجميع هي الآفة الأساسية التي صنعت هذه المشكلة منذ البداية بين الأم وخطيب ابنتها ثم بينها وبين ابنتها فيما بعد، ولقد كنت أحار أحيانا في فهم سر هذا التلازم الدائم بين التكبر وبين العناد وصلابة الرأي والتمسك به إلى النهاية حتى ولو أدى بصاحبه وبالجميع إلى الخراب إلى أن قرأت ذات يوم نصيحة الإمام محمد الباقر لابنه الإمام جعفر الصادق وهو يحذره من الكبر فيقول له: ما دخل قلب امرىء شيء من التكبر إلا نقص من عقله بمثل ما دخله!

فالتكبر بهذا المفهوم نقصان في العقل والحكمة والقدرة على الاستيعاب السليم للأمور. وعلى الناحية الأخرى فإن التواضع والمرونة والاستعداد للاقتناع بما في آراء الآخرين من حكمة وصواب هو في واقع الأمر إضافة إلى العقل وإطلاق لقدراته على أن يعين الإنسان على تجنب المشاكل التي لا مبرر لها مع الآخرين.

ولقد ساهم في تصاعد الأمور بين زوجتك وخطيب ابنتها أن خطيب ابنتك يتسم في تصوري بشيء من الاعتداد بالنفس يستمده غالبا من اعتزازه بأوضاعه المالية الميسورة.. أو ربما يكون سمة أصيلة في شخصيته منذ البداية، ولهذا فلقد بدأت العلاقة بينهما حميمة ووثيقة في البداية وخلال فترة المجاملات والتنازلات البسيطة بين الطرفين طلبا لقبول الطرف الآخر.. ثم لم تلبث شخصية كل منهما أن عبرت عن نفسها بوضوح بعد التآلف والاعتياد، فكان الصدام وتطاول زوجتك عليه بالإهانة ورغبتها في فسر إرادتها عليه كما تفرضها على الجميع، ولم يجد الرجل في نفسه ما يدفعه إلى قبول الإهانة والتسلط فاستمسك بعدم الاعتذار إليها واستمسكت زوجتك بعدم الاعتذار إليه لأن الحق دائما حكر عليها وفي جانبها على الدوام كما تؤمن هي، فكان الابتعاد، وضاعف من التصاعد أن ابنتها قد خرجت هذه المرة على إرادتها ورغبت في استكمال مشروع الارتباط به حتى ولو لم يعتذر لأمها.. وأيدتها أنت في ذلك بعد أن خشيت على مستقبل ابنتك من رهن سعادتها وزواجها برؤية زوجتك وحدها للأمور، فحلت الكراهية الشديدة الخطيب الابنة في قلب أمها محل الترحيب به والعلاقة الحميمة معه في البداية، ولا عجب في ذلك وجمال الدين الأفغاني يقول لنا: إن «الأكفاء في الزمن الواحد والمكان الواحد لا يكونون غالبا أصدقاء»! وزوجتك وخطيب ابنتها كفئان إلى حد ما في الاعتداد بالنفس، وإن كان ذلك مضاعفا في شخصية زوجتك كما تروي عنها.. غير أن ذلك كله لا يحرر أبدا أن تشن زوجتك هذه الحرب الضارية ضد ابنتها لمنع زواجها من خطيب طارت نفسها فرحا به في البداية ولا يبرر أبدا إيذاءها لابنتها معنويا وبدنيا وطردها من رحمتها لكي تتزوج من تقدم إليها في بيت أسرتها وهي وحيدة ومنبوذة من أمها وبعض أهلها لغير سبب سوى العناد والتكبر وصلابة الرأي والتمسك به إلى ما لا نهاية.

وإذا كان الأمر كذلك أفلا من سبيل لتقريب وجهات النظر بين هذه الأم وهذا الخطيب حتى ولو تنازل أحدهما أو كلاهما بعض الشيء عن اعتزازه بنفشه لكيلا

يحرما هذه الفتاة من حقها العادل في أن تتزوج تحت أنظار أبويها.. وبغير أن يكدر عليها بعض سعادتها إحساسها بالوحدة والنبذ من جانب هذه الأم العنيدة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخطة الجهنمية!

أنا شاب في الثامنة والعشرين من عمري.. أتابع باهتمام بريد الجمعة واستطيع أن أقول إن ما يقرب من 80٪ من خبرتى بالحياة قد اكتسبتها منه، ولهذا فإني ألجأ إليك لألتمس منك الرأى والمشورة في مشكلتي التي أقف أمامها سائرا الآن. فلقد بدأت القصة منذ أكثر من عام حين تعرفت بسيدة متزوجة تكبرني بثماني سنوات ولها ابنة عمرها 17 عاما، ثم توثقت صلتي بها سريعا لظروف غياب زوجها المتكرر حيث يضطره عمله للسفر لفترات طويلة، فأصبحنا نتحدث في التليفون لساعات طويلة ونلتقي في الأماكن العامة ونتبادل أحاديث الحب والهيام، كما بدأت أزورها في بيتها عند سفر زوجها، وتكررت هذه الزيارات إلى أن تخطينا كل الخطوط الحمراء وأصبحت علاقتي بها «كاملة».. واستمر الحال على هذا النحو بضعة شهور.. لم يعد لكل منا خلالها شاغل سوى الآخر، وأصبحت أزورها في بيتها كلما سافر زوجها وخلا البيت عليها في غياب أبنائها في مدارسهم وتزورني هي من حين لآخر في بيتي الذي أقيم فيه وحيدا بعد زواج كل إخوتي ورحيل أبي وأمي منذ سنوات..

إلى أن جاء يوم وفوجئت بها تعرض على خطة جهنمية تضمن لنا - كما قالت - استمرار علاقتنا بلا متاعب إلى أبعد مدى، وتجنبنا شكوك الآخرين في أسباب زياراتي المتكررة لها في بيتها أو زياراتها لي.. أما هذه الخطة فهي أن ارتبط بابنتها ظاهريا، وأن تشجعها هي على قبول الخطبة من ناحية المبدأ فتتسع الفرصة للاستمرار في علاقتنا الخاصة بلا مشاكل لعدة سنوات لأنها مازالت طالبة بالمرحلة الثانوية.. وقد تنضج الفتاة خلال هذه السنوات وتتجه مشاعرها لزميل لها في الجامعة مثلا أو تكتشف أنني لست فتى أحلامها فتعتذر عن عدم إتمام الخطبة والزواج فأتحلل من مشروع الارتباط بها ونفوز نحن - أنا وأمها – ببضع سنوات من العلاقة الحميمة بلا متاعب أو ظنون.. فإذا حدث العكس وتعلقت بي الفتاة ورغبت في استكمال المشوار معي إلى نهايته فليس ثمة ما يمنع من ذلك، على أن تتوقف علاقتي بوالدتها عند هذا الحد وتقوم بيننا علاقة المصاهرة!

إنني أعرف أنك تريد الآن أن تمزق هذه الرسالة وتلقي بها في سلة المهملات وأنت تلعنني لكني أناشدك أن تستمر في قراءتها حتى النهاية، لعلك تجد في خاتمتها ما يخفف بعض غضبك علىّ..

لقد ألحت علىّ شريكتي بهذه الخطة.. وفكرت فيها بعض الوقت فلم أر مانعا من تنفيذها، وكلفتها بأن تمهد لي الطريق ففعلت، وحدثت ابنتها عني، وشجعتها على الترحيب بى، وانتظرنا مجيء أبيها من رحلة عمل له.. وتقدمت إليه طالبا يد ابنته.. فتردد في البداية في القبول بسبب صغر سن ابنته.. لكن شريكتي نجحت في إزالة تردده، وأيدت فكرة الارتباط المبكر لابنتها بشاب «ممتاز» مثلي لكي يحميها هذا الارتباط من الإغراءات الكثيرة التي تحيط بها نظرا لجمالها الملحوظ وغياب الأب معظم الأوقات.. وذكرت زوجها بأنه قد خطبها وعمرها ١٧ عاما مثل ابنتها

وتزوجها وعمرها 18 عاما.. فاقتنع الرجل بذلك وأعلن موافقته بعد أن لمس من ابنته ترحيبها بهذا الارتباط.

وبالفعل تمت قراءة الفاتحة ثم الخطبة وأصبحت أتردد على بيت شريكتي بلا حرج، وازدادت فرص اللقاء بيننا كثيرا وأصبح اتصالنا التليفوني بالساعات أمرا علنيا أبدؤه بالحديث مع البنت لبعض الوقت ثم تأخذ الأم السماعة وتتحدث معي بحريتها وتدعوني للحضور أو تطلب مني مقابلتها لشراء شيء في وسط المدينة.. إلخ. ولم ألحظ أي شك من الفتاة في طبيعة علاقتي بأمها.. ولاحظت على العكس من ذلك أنها سعيدة بي وبالمودة التي تجمع بيني وبين أمها وإخوتها وسعدت بذلك في البداية وشعرت بأن كل شيء يمضي كما هو مخطط له تماما، لكني بدأت أشعر فجأة بالذنب تجاه هذه الفتاة البريئة التي اشترك أنا وأمها في خداعها وبالندم على ما تورطت فيه معها ومع أمها على السواء، وبدلا من أن يستمر ابتهاجي بنجاح الخطة وجدت نفسي أشعر بالخوف الشديد مما سيحيق بي من غضب ربى لما فعلت، وتدهورت إليه من علاقة آثمة مع شريكتي.. وبدأت الهواجس تلاحقني وتفسد على أوقاتى واعتراني الضيق والاكتئاب ولاحظت أنني لم أعد أشعر بالمتعة التي كنت أشعر بها مع والدتها من قبل.. وإنما بالألم والضيق والذنب، كما لاحظت أيضا أنها قد أصبحت مهمومة معظم أوقاتها ولم تعد سعيدة ومبتهجة دائما معى كما كانت من قبل ونهضت من نومي ذات ليلة مفزوعا وأنا أشعر كأن أحدا يخنقني، فاستقر عزمى بعد تفكير طويل على أمر.. وتوجهت للقاء شريكتي وصارحتها بندمي على ما وصلنا إليه معا ففوجئت بها تقول لى أنها تشعر هي الأخرى بنفس هذا الندم وتريد أن تفاتحني في ضرورة التوقف عن الاستمرار في الخطأ لأنها لم تعد قادرة على مواصلته ولا سعيدة به..

واسترحت كثيرا حين سمعت منها ذلك واتفقنا على وقف اللقاءات الخاصة بيننا والاستمرار في العلاقة العائلية التي تجمعنا بصفتي خطيبا لابنتها وبصفتها أما لخطيبتي والتزمنا بهذا القرار وبدأ كل منا يصلى ويستغفر الله كثيرا ويندم على ما بدر منه، واستمرت صلتي العلنية بأسرة خطيبتي كما كانت من قبل وأصبحت أدخل بيت الأسرة وقد تحررت لأول مرة من الإحساس بالإثم والخداع، وأصبحت شريكتي السابقة تقابلني بود واحترام، ولا تتطرق إلى أي أحاديث خاصة بنا لكن هاجسا جديدا بدأ يؤرقني وهو هل يحل لى الزواج من هذه الفتاة بعد خطئي مع أمها أم لا.. وتحرجت من أن أسأل أحدا في ذلك خوفا من أن يكتشف الحقيقة وتوجهت إلى دار الافتاء بسؤال مكتوب عن جواز ارتباط شاب بفتاة سبق له أن أخطأ مع أمها وتوقف عن الخطأ فجاءني الجواب بأن الإمام أحمد بن حنبل قد حرم مثل هذا الزواج في حين أباحه الأئمة الثلاثة الآخرون وأخذت بالرأي الأخير ومضيت في مشروع الزواج.. وبدأنا نتحدث عن تحديد موعد قريب لعقد القران.. لكني وجدتني بالرغم من ذلك حائرا ومترددا ولا أعرف ماذا ينبغي لي أن أفعل.. وهل أرتبط بهذه الفتاة للنهاية وأتزوجها.. أم ابتعد، عن هذه الأسرة كلها خاصة أن أمها كانت قد عرضت علىّ حتى بعد توقف العلاقة الخاصة بيننا أن تحصل من زوجها على الطلاق وتتزوجني إذا رغبت أنا في ذلك، لكني رفضت هذا الاقتراح بشدة لكيلا

أهدم أسرتها وافرق أبناءها الذين ينعمون بحياة عائلية طبيعية بالرغم من كل ما حدث إنني أعرف أنني لست موضع احترامك الآن بالمرة لكني أثق أنك لن تبخل علي بالرغم من ذلك بالرأي السديد والمشورة ولعله يخفف من حنقك على أن تعلم أن ما وصلت إليه من تقويم هذه السيدة يستحق الاحترام بالفعل، فلقد أصبحت تصلي وترتدى الملابس الطويلة والمحتشمة وتغطي شعرها ولا تتحدث مع أحد إطلاقا، ونفس الشيء حدث أيضا للفتاة التي كانت على وشك أن تتخذ نفس اتجاه الأم قبل ارتباطى بها فعدلت مسار تفكيرها وأصبحت ملتزمة ومحتشمة تماما..

والآن بماذا تنصحني أن أفعل.. يا سيدي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لست أريد أن أخوض في نهر الفقه العميق لكى أناقش صحة ما أوردته في رسالتك من موقف الأئمة الأربعة الأجلاء من مثل هذا الزواج المحاط بالشكوك والريب.. لكني أقول لك فقط أنك قد أخطأت في النقل عن فتوى دار الإفتاء فيما قلته عن مواقفهم منه فلقد رجعت إلى الفتوى رقم 1164 من فتاوى دار الإفتاء المصرية والصادرة في عهد الإمام الراحل الشيخ جاد الحق على جاد الحق يرحمه الله حين كان مفتيا للجمهورية، فوجدت الفتوى في مسألة مشابهة تشير إلى أنه ليس ابن حنبل وحده رضي الله عنه هو الذي يحرم مثل هذا الزواج.. وإنما يحرمه أيضا فقهاء المذهب الحنفي والثوري والأوزاعي، حيث يثبتون لارتكاب الخطيئة مع الأم ما يحرم المصاهرة ويقولون أن من ارتكبها مع أمرأة فقد حرمت عليه أمها وابنتها وجدتها وحرمت هي على أبيه وأجداده وإن علوا وعلى أبنائه وإن نزلوا، في حين أجاز فقهاء الشافعية والمالكية على كراهته اعتمادا على أنه لا يعتبر في التحريم بالمصاهرة إلا النكاح الحلال الذي لا شبهة فيه، فإذا لم يكن كذلك لم تقع به حرمة المصاهرة ولكن يكره مثل هذا النكاح ولا يندب إليه أي لا يكون مفضلا، وبغض النظر عن اختلاف الأئمة الأجلاء في هذا الأمر وكل مصيب كما يقولون فإنى أسألك عما يغريك بفتاة صغيرة لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها لكي تسعى للارتباط بها وقد أخطأت من قبل مع أمها..

ولم تكن خطبتك لها من البداية سوى جزء من خطة جهنمية شائنة للتعمية على علاقتك الآثمة بوالدتها؟

ولماذا تصر على مخالفة أحكام العقل والأخلاق باستمرار وجودك في حياة هذه الفتاة الضحية والظروف المعقدة المحيطة بها قد تنذر باحتمال تجدد العلاقة بينك وبين أمها في أي مرحلة من العمر، بدليل عرضها عليك حتى بعد خطبتك لابنتها وتوقف العلاقة الآثمة بينكما أن تحصل على الطلاق من زوجها وتتزوجك؟

ألا يعني ذلك أن القصة المؤسفة لم تنته كل فصولها بعد؟ وإن استمرار وجودك بالقرب من هذه السيدة قد يحمل لك نذر تجددها في أي لحظة؟

إن الإنسان ضعيف بطبعه أمام الإغراءات.. والمثيرات ونداءات الغريزة والمغامرة.. وسوابقك الأخلاقية لا توحى بأن استشعارك للندم أو استشعار شريكتك له قد يكون كافيا الآن أو في المستقبل القريب لحماية كل منكما من ضعفه تجاه الآخر إلى ما لا نهاية.

فلماذا إذن تضع نفسك وتضع هذه السيدة موضع اختبار قد يدوم طوال ارتباطك بابنتها؟ ولماذا لا تنجو بنفسك من حقل الألغام الذي دخلته بقدميك فتحمى هذه الفتاة الصغيرة مما ترشحها له أنت وأمها من عذاب كعذاب الأساطير الإغريقية حين تكتشف ذات يوم ما كان من أمركما معا.. أو ما سوف يستجد منه في قادم الأيام؟

ولماذا أيضا لا تعين هذه السيدة على نفسها بالخروج نهائيا من حياتها، وكفاك وكفاها إثما ما كان من أمركما معا وما كان من أمركما مع هذه الفتاة التي ارتضت لها أمها - لا سامحها الله - أن تتخذها ستارا خادعا لعلاقاتها بك، حتى ولو أدى ذلك إلى استغلالها هذا الاستغلال الدنيء واللعب بعواطفها الغضة بغير شفقة لحساب أهوائها ونزواتها؟ يا إلهي!! إن من الحيوانات الثدية من قد لا ترضى لفلذات أكبادها بهذا الاستغلال الدنيء، فكيف يرضى به بعض البشر لثمرات قلوبهم؟ إنني لن أحدثك عن الحلال والحرام لأنك تعرف جيدا كل ما يمكن أن يقال في ذلك ولكني سأقول لك فقط إنه حتى في الخطأ، فإن من الأخطاء ما قد يخفف من بعض وزره إنه قد يراعي بعض القوانين الأخلاقية دون بعضها فلا يضاعف مرتكبه من جرمه باستغلال الآخرين أسوأ استغلال ولا يقترب في خطئه بالأذى ممن يأمنون إليه ويعتمدون عليه ويثقون في إخلاص نياته تجاههم، ومن الخطأ كذلك ما لا يراعى فيه مرتكبه أي قانون أخلاقي أو حرمة لشيء أو شفاعة لصلة رحم أو قرابة، فكأنما لا يرى فيما يفعل إلا نفسه ورغباته وأهواءه مهما ترتب عليها من إيلام وإيذاء للآخرين، وخطأ هذه السيدة في حق ابنتها بوضعك في طريقها لكي تكون ستارا شائنا لعلاقتها الآثمة بك هو من هذا النوع الأخير الذي يضيف إلى جرم الخطيئة خسة خداع أقرب الناس إليها وأحقهم عليها بالحماية من مثل هذا الخداع ولو ضحت هي في سبيل ذلك بكل أهداف الحياة.

ولقد قلت مرارا إن الضمير الأخلاقي قد لا يمنعنا في بعض الأحيان من ارتكاب الخطايا.. لكنه يحرمنا بكل تأكيد من الاستمتاع بها، وما حدث لك ولهذه السيدة بعد تورط كما في خداع هذه الابنة.. ونجاح خطتكما الجهنمية في إضفاء الصيغة الملائمة على وجودك في حياة هذه الأسرة يؤكد ذلك غير أنني أصارحك بأنني لا أطمئن كثيرا إلى الاعتماد على هذا الوازع الأخلاقي في علاقتك بهذه السيدة.. إذا استمرت صلتك بابنتها وتطورت إلى الزواج.. كما أنني لا أرشح مثل هذا الزواج الذي أحسب أنك تتلمس الآن الذرائع للنكوص عنه، للنجاح والاستمرار بلا مشاكل محزنة.. وأسبابى لذلك هي أنك حتى ولو نجحت في الاستمرار في مقاومة نداء تجدد العلاقة بينك وبين هذه السيدة، فإنك لن تنجو غالبا من مؤثرات هذه العلاقة السابقة عليك ورواسبها الأخلاقية في أعماقك في علاقتك بهذه الفتاة في المستقبل فلا شك أنك رغم «اعتزازك» بما تقول إنك قد نجحت فيه من «تقويم» هذه السيدة،

وتعديل مسار تفكير ابنتها التي كادت تمضي على درب أمها لولا جهدك المشكور في تقويمها!

أقول إنك لا شك لا تخلو في أعماقك من بعض عدم الاطمئنان إلى نوعية القيم الأخلاقية السائدة في الوسط العائلي لهذه السيدة وابنتها، وإنك لن تخلو فيما أتصور من بعض الهواجس والظنون في أن تكون لهذه القيم المتساهلة بعض الأثر على التزامها وسلوكها في المستقبل.. وحتى ولو كانت فتاة طيبة ولا غبار على أخلاقياتها فإنك قد تظلمها بهواجسك وشكوكك ورواسب علاقتك السابقة بأمها.. وتساؤلاتك عما إذا كان لسوابق أمها معك من أثر على نظرتها للحياة وأخلاقياتها في المستقبل.. فلماذا لا تحميها من كل ذلك، وتدعها لشأنها.. ولها من جمالها وصغر سنها ما قد يرشحها للارتباط بمن لا ينطوي لها على شيء من مثل هذه الهواجس والظنون! ولماذا لا تبتعد أنت عن البوتقة التي تضطرم فيها نيران الشكوك.. واحتمالات تجدد العلاقة الآثمة مع الأم.. واحتمال اطلاع الابنة على علاقتك بأمها.. واحتمال انفجار الموقف كله بفضيحة مدوية وانهيار أسرة بأكملها وتبدأ حياة جديدة ونظيفة وخالية من كل الشوائب مع فتاة لا تربطك بأسرتها مثل هذه الروابط المركبة والمعقدة..

إنني لا أظن أن هذه الفتاة سوف تخسر الشيء الكثير بفقدها لك.. بل لعلي أقول أنها ستربح نفسها وسعادتها في المستقبل إذا نجت من الارتباط بك ومن هذا الزواج الذي يحمل في ثناياه من عوامل الفشل والقلاقل والاضطراب أكثر مما يحمل من عوامل النجاح والاستقرار والأمان.

ولقد ركزت حديثي كله على هذه الفتاة باعتبارها الضحية الأولى للخداع البشع والخطط الجهنمية الآثمة من جانب أمها.. وجانبك، أما الضحية الأخرى لهذه القصة وهي والدها، فحسابكما عنه مع خالقكم، لكن أبسط ما تستطيع أن تقدمه له الآن إذا كان مازال لصوت الضمير من أثر عليك هو أن تختفي من حياة ابنته وأسرته وعائلته.. عسى أن يرشحك ذلك مع صدق الندم وصحة العزم للتطهر مما جنيته عليه من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسامة الهزيمة

كنت فيما مضى أستبعد أن يجيء يوم أحتاج فيه إلى الكتابة إليك.. لكن حادثات الأيام لا تدع أحدا في طريقه فلقد تعرضت لتجربة شخصية دفعتني لأن أكتب لك عنها مستشيرا ومحذرا، فأنا مهندس أبلغ من العمر 45 عاما، تزوجت منذ 15 عاما من فتاة كانت وقتها طالبة بالسنة الثالثة الجامعية.. وفي قمة التدين والأخلاق، وقد تخرجت زوجتي في كليتها ونحن معا، وعملت مدرسا بأحد المعاهد.. ومضت حياتنا هادئة وأنجبنا خلال رحلتنا مع الحياة ثلاثة أبناء صغار ملأوا حياتنا بهجة وسعادة، ثم حدث ذات يوم أن زرت زوجتي في مقر عملها فعرفتني بزميل لها رحب بى بحرارة.. ورحبت به.. وبعد أيام أبلغتني زوجتي أن زميلها هذا يرغب في زيارتنا في بيتنا مع أسرته، وجاء الرجل مع زوجته وأطفاله الذين يماثلون أولادي في السن تقريبا.. وأمضينا معا وقتا طيبا، ولاحظت من الوهلة الأولى أن زوجته تفوق زوجتي جمالا ثم دعينا بعد ذلك لزيارة هذا الزميل في بيته، وتكررت الزيارات العائلية بيننا كثيرا ثم انتقلت من الحي الذي أقمت فيه معظم سنوات عمرى، إلى حي جديد بعيد نسبيا عن الحى السابق، فلاحظت أن هذا الزميل قد بدأ يزورنا في بيتنا منفردا دون اصطحاب زوجته معه ويمضي معنا وقتا طويلا وتكررت الزيارات المنفردة من جانبه بشكل مكثف، حتى بدأت أتساءل عن سر هذه الزيارات الكثيرة المنتظمة دون حضور زوجته معه، وأفضيت لزوجتي بتساؤلاتي هذه فنهرتني بشدة، ودافعت بحرارة عن هذا الزميل ووصفته بأنه صديق مخلص وشريف ويحترم حقوق الصداقة، ولم يقتنع عقلي تماما بدفاع زوجتي، لكن الأمور مضت بعد ذلك في نفس الطريق، ثم حدثت بعض المشاكل العادية بيننا فلاحظت أن رد فعل زوجتى تجاهها قد أصبح حادا وجافا.. ولاحت لي فرصة للعمل في الخارج لمدة عامين فأملت أن يساعد بعدي عنها في إزالة هذه الخلافات وسافرت بالفعل.. وحرصت على الاتصال بزوجتي وأولادي من غربتي في مواعيد دورية.. وألمني أن زوجتي لم تكتب لي أية رسائل خلال بعدي عنها بالرغم من تلهفي إلى أية كلمة من جانبها، ومضت تسعة أشهر فإذا بي أتلقى منها خطابا مقتضبا تطالبني فيه بإرسال ورقة الطلاق إليها عن طريق وزارة الخارجية، وصعقت حين قرأت هذا الخطاب، وترقبت بصبر نافد أول إجازة سنوية لي ورجعت إلى بلدي لأحاول إنقاذ أسرتى من الانهيار، وناقشت زوجتي في أسباب طلبها الطلاق وبيننا ثلاثة صغار يحتاجون إلينا فلم تجبني سوي بأن الحياة قد استحالت بيننا وأنه من الأفضل لكل منا أن يمضي في طريق مختلف، وناقشت الأمر مع الأهل والأقارب فإذا بوالدة زوجتي تصارحني بأن ذلك الزميل الذي كان يزورنا بكثرة في بيتنا هو السر في طلب زوجتي للطلاق وأنه سوف يتزوجها بعد أن تحصل على الطلاق مني!

ولجأت إلى الأسرة فنفوا ذلك واتهموا والدة زوجتي بالاندفاع والتهور وواجهت هذا الزميل نفسه بما قالته فنفاه بشدة وتساءل مما يدعوه للزواج مرة أخرى وله زوجة جميلة وثلاثة أبناء، وقضيت بقية أيام الإجازة أحاول أصلاح الأحوال بيني وبين

زوجتي بلا جدوى - واضطررت العودة إلى عملي بغير الإقدام على الطلاق حفاظا على كيان الأسرة..

ومن غربتي رحت أتصل بزوجتي تليفونيا فتخبرني في كل مرة بأنها متمسكة بطلب الطلاق إلى النهاية.. وفشلت كل جهودى لإقناعها بالعدول عن هذا المطلب فاضطررت إلى العودة بعد ستة أشهر في محاولة أخيرة لإنقاذ الأسرة فاستمرت زوجتي في معاملتي أسوأ معاملة وتمسكت بالنوم في غرفة مستقلة، وحين أبلغتها بأنني لا أمانع حتى في استمرار الحياة بيننا على هذا النحو لكي تكون أما للأطفال فقط راحت تهددني بدس السم لي أو قتلى خلال نومى إن لم أستجب لطلبها بالطلاق، ولم تكتف بذلك بل بدأت بالفعل في اتخاذ إجراءات طلب الطلاق عن طريق المحكمة.. وفوجئت بأحد المحامين يزورني ويحاول إقناعى بالطلاق ودبا بعيدا عن إجراءات المحاكم، قائلا لي إنني رجل مهندس ومثقف ولا يليق بي أن أتمسك برفض طلاق زوجتي ما دامت تصر عليه ولا أمل في عدولها عنه..

ولم أستطع الصمود لبذاءات زوجتي وشتائمها أكثر من ذلك فوافقت على الطلاق وذهبت معها ومعي شقيقي إلى المأذون في موكب حزين وشعرت بأن قطعة من جسمى تنتزع منه وأنا أردد وراءه العبارات الكريهة.

ورجعت إلى بيتي مهزوما مدحورا، ومضت أيام العدة فما إن انتهت حتى علمت أن زوجتي السابقة وأم أطفالي الثلاثة قد تزوجت في اليوم التالي مباشرة ذلك الزميل الذي كان يدعى صداقتي ودخل بيتي واقتنص مني زوجتي.. وانهرت تماما حين علمت بذلك.. وحصلت على إجازة من العمل.. وجلست في بيتى مع أولادي حزينا مهموما وأكاد أجن من التفكير المتصل فيما حدث لي.. وفي شدة ضيقي فيراودني الشيطان أحيانا أن أذهب إلى هذا «الصديق» الغادر وأقتله لأريح المجتمع منه.. ثم يعيدني عقلي إلى الرشد في أحيان أخرى وأتساءل وماذا يستفيد أبنائي إذا فعلت ذلك وكان مصيري السجن.. ومن يرعاهم في غيابى؟

والغريب في الأمر أن زوجة هذا الرجل تلومني وتقول لي إنني السبب فيما حدث لأنني أدخلت زوجها بيتى وسمحت له بهذه الزيارات المكثفة وكان ردي عليها أنني سمحت للكثيرين بزيارتى فلماذا لم يفعل أحد غيره ما فعل.. والأنكى من ذلك أنه قام بتأجير شقة قريبة من مسكني بنفس الحي لزوجتي التي أصبحت زوجته من بعدي وذلك لكي أموت كمدا وغيظا.. فهل من العدل أن يعاقب القانون على قتل مثل هذا الرجل! لقد رويت لك قصتي لكي تحذر الآخرين من هؤلاء الذين يتمسحون بمسوح الصداقة، ويتسللون إلى البيوت الهادئة ويهدمونها ويشردون أطفالها الصغار ويحرمونهم من أمهاتهم وأمانهم.. ولكي تنصحني بما أفعل لكي أستطيع احتمال التجربة المؤلمة واجتيازها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

وماذا يملك الإنسان أن يفعل إذا شاءت له أقداره أن يمنى بهزيمة شخصية مماثلة سوى أن يتقبل ما حدث كما يتقبل حقائق الحياة الأخرى.. ويسلم بأنه ليس في الإمكان محوه أو تغييره.. لكنه يستطيع فقط - إذا أراد - أن يعين نفسه على اجتياز هذه المحنة بأقل الخسائر النفسية والصحية وأن يؤمن بأنه إذا كان قد انهزم في احدى الجولات فإنه لم يفقد كل فرصة في الحياة ومازال قادرا على أن يبدأ من جديد مستفيدا بدروس المحنة وخبرتها الأليمة في تفادي أشواك الطريق..

لا يملك المرء في مثل هذه الظروف سوى أن يفعل ذلك..

فالتسليم بما حدث والإيمان بأنه ليس سوى عثرة من عثرات الطريق يستطيع النهوض منها ومواصلة السير إلى الأمام..

هو الخطوة الأولى في التعامل السليم مع الانكسارات والهزائم التي قد يتعرض لها الإنسان خلال رحلة الحياة..

أما التجمد أمام ما حدث.. والاستغراق النفسي والوجداني فيه إلى ما لا نهاية والانشغال الكلى بما كان عما ينبغي له أن يكون في الحاضر والمستقبل القريب فلا طائل وراءه سوى مضاعفة الخسائر.. وضياع فرص التعويض، والعيش في إسار المحنة بدلا من تخطيها.. والتطلع لما بعدها.

والحق أننا نحتاج إلى أن ندرب انفسنا على تقبل الهزيمة بروح واقعية كما تعلمنا من قبل أن نزهو بالانتصارات ونسعد بها.. لأن الحياة نجاحات واخفاقات، والمهم هو كيف نتعلم من الفشل، كما نعمنا من قبل بالنجاح، وقديما قال شكسبير: إذا ابتسم المهزوم.. فقد المنتصر بعض لذة النصر!

وابتسامة المهزوم هنا لا تعني السعادة بالهزيمة أو ابتهاج لها، وإنما تعني ألا تتكسر إرادة الإنسان أمامها وأن يؤمن بقدرته على الحسود لها.. وتعويض بعض ما خسره في سياقها..

وفي قصتك ليس يعيب الإنسان أن يرفضه شريك حياته أو أن يخون عهد الوفاء منه لأن الخيانة في النهاية هي عار الخائن وليس المخون، وإنما يعيبه حقا أن يتمسك هو بمن رفضته وأن يمتهن نفسيه وكرامته في استجداء استمرارها معه بعد أن أكدت المؤشرات الواضحة من قبل أن تحت الرماد نارا لا تخفى على فطنة أحد. وأنه من الأكرم لمن كان في مثل ظروفك أن يقبل بما ليس منه بد، ويطلق سراح من لم تحفظ عهده، ولم يردعها عن الانصياع لأهوائها ثلاثة أطفال صغار كأطفالك..

فإذا كانت ثمة مسئولية عما حدث فالمسئولية مشتركة بين أطراف الثالوث الشهير في الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر وهو ثالوث الزوج والزوجة والصديق وإذا كانت زوجة ذلك الرجل تعتبرك المسئول الوحيد عما حدث لأنك قد فتحت بابك لزوجها وتقبلت زياراته المكثفة لك ولزوجتك بدون زوجته فإن هذه المسئولية رغم أهميتها ليست في النهاية المسئولية الوحيدة.. حتى وإن كانت قد ساهمت في تصعيد الأحداث بالفعل، لأن الرجل زميل لزوجتك في العمل ولم يكن كلاهما ليعجز عن التواصل مع الآخر إذا أغلق في وجهيهما باب اللقاء المشترك معك وإن كان ذلك،

لا يغير من الحقيقة العامة وهي أن التحفظ في مثل هذه العلاقة هو الأولى بالاتباع بالفعل سد الأبواب الفتنة والإغراءات والمشاكل..

لكني بالرغم من ذلك لا أفهم أن ينصب حقدك على هذا الرجل وحده حتى لتفكر في الانتقام منه بدعوى «إراحة المجتمع» من أمثاله.. وهو بالرغم من أدانته أخلاقيا في هذه القصة المؤسفة لم يكن الطرف الوحيد فيها بل ربما لم يكن أيضا الطرف الفاعل المؤثر في القصة كلها، إذ كانت هناك كذلك زوجتك السابقة ومسئوليتها لا تقل خطرا عن مسئوليته إن لم تزد عليها.

لأنها لو كانت قد حفظت لك عهدك أو نفرت من فكرة الخيانة والارتباط بغير زوجها وتعريض استقرار أطفالها للخطر لما نجح هذا الرجل مهما بلغ تأثيره في فك عرى العلاقة الزوجية بينك وبينها. وعلى أية حال فإن فكرة الانتقام منه لا معنى لها.. ولا طائل من ورائها سوى مضاعفة الخسائر الإنسانية والاجتماعية بالنسبة لك ولأطفالك.. ولقد تزوج كل منهما من الأخر، وانطوت بذلك صفحة العلاقة غير المشروعة بينهما وبدأت صفحة أخرى لا يحق لك أو لغيرك الاعتراض عليها.. فاطو أنت أيضا هذه الصفحة المحزنة من حياتك وتطلع لبدء صفحة جديدة خالية من أخطاء الماضي وآلامه.

واعلم أن الانشغال الشديد بأمر من خانت عهدك ومن تزوجها حتى ولو بالكراهية لهما والتفكير في الانتقام منهما أو من أحدهما، ليس من علامات البرء من هذه المحنة.. لأنه حتى الكراهية الشديدة لمن آذونا انشغال وجداني بأمرهم لا يستحقونه منا، ولا يستحقون أن نبدد فيه طاقتنا النفسية.. وإنما تلوح بشائر الشفاء في الأفق حقا حين نبدأ في تجاهل أمر من أساءوا إلينا.. «واعتبارهم» من غير الأحياء.. وغير الأموات بالنسبة إلينا على حد تعبير الفيلسوف الألماني نيتشه، فيكون ذلك علامة إيجابية على اجتياز المحنة.. والتهيؤ مواصلة الطريق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صراع الديناصورات

أبدأ رسالتي إليك بهذا الدعاء الذي يتردد دائما في أعماقى:

«اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» صدق الله العظيم.. فأنا شاب عمرى 23 عاما ولى شقيق رشيد عمره 17 عاما.. ولقد نشأنا بين أبي وأمي في أسرة تظللها التقاليد الأصيلة ويرفرف عليها الحب الذي بدأت به حياة الأبوين وارتباطهما، وترسخ في أعماقنا حين أدركنا أنه وحده كان سبب وجودنا، حيث جمع الحب بين أبوينا وتحديا به الجميع والظروف المحيطة ونجحا في ذلك.

ولقد كنا نقيم في شقة صغيرة من حجرتين وصالة بمدينة نصر.. ونخرج يوم الاجازة مع أبوينا اللذين يعمل كل منهما بوظيفة ملائمة ويتقاسمان أعباء الحياة.. ولم نكن نشعر بأننا محرومان من أي شيء، ولا ننظر إلى غيرنا من الأبناء ولا يعنينا ماذا يملكون أو ينفقون، ثم تقدمنا في مراحل التعليم وارتقت أحوالنا المادية والاجتماعية كثيرا وانتقلنا إلى شقة أكبر وأوسع بمدينة نصر كذلك.. واحتفظ أبي بالشقة القديمة الصغيرة لتكون لي ولأخي في المستقبل، وأصبح أبي مديرا في عمله، وأمى مديرة في عملها، وأصبح كل منهما يمتلك سيارة خاصة يذهب بها إلى عمله.. وبعد فترة قصيرة.. بدأت حياتنا تشهد، بعض المتغيرات الجديدة عليها وبدأت المشاكل العادية التي قد تحدث في أي أسرة تتكرر بمعدلات أسرع في حياتنا وتتجمع ضغوطها تحت السطح ونحن لا نشعر بها، وضاعفت منها ضغوط العمل ومشاكله.. فأدى كل ذلك إلى تضخيم آخر مشكلة زوجية شهدها بيتنا بين أبي وأمي ووسوس الشيطان لأحد الطرفين وهو في غضبه أن يتخلص من كل ما يربطه بحياته السابقة بدعوى أن العمر قصير، وقد لا يستطيع أن يفعل ما يريد أن يفعله الآن في المستقبل، فيرد عليه الطرف الآخر بالجرح والإهانة والتهديد بأن يفعل هو أيضا نفس الشيء في أقرب وقت.

وتصاعد الموقف بأسرع من قدرتنا على الاستيعاب.. ناهيك عن الإصلاح أو التدخل لوقف التدهور، وطلق أبي أمي ولم يكتف بذلك وإنما تزوج أيضا بأخرى ردا على إهانة أمي له ببعض العبارات المستفزة، وباع الشقة القديمة التي كان يحتفظ بها لنا ليشتري شقة أخرى يتزوج فيها. ولم تقف أمي مكتوفة الأيدي أمام هذه الإهانة الاجتماعية التي وجهها لها أبي بزواجه فتزوجت هي الأخرى خلال فترة قصيرة، وطلبت منا مغادرة الشقة التي نقيم فيها معها لكي يأتي زوجها ليعيش معها وغيرت كوالين الشقة وسدت أبوابها في وجهينا أنا وأخي كما لو كنا «خدمًا» انتهت مدة خدمتهم في هذا البيت وآن لهم أن يبحثوا عن غيره.

وعجبنا لما حدث.. وتساءلنا عن السبب فجاءنا الجواب أن الهدف هو أن نجد نفسينا بلا مأوى فنذهب لأبينا ونحصل منه على حقنا لديه بأي وسيلة فإن لم نستطع ذلك فلننغص، إذن عليه حياته الجديدة.. ولو بإشعاره بأننا قد أصبحنا مشردين بعد أن كنا نحيا حياة آمنة وننعم بحماية الأبوين ورعايتهما.. ولا عجب في ذلك وكل منهما

يريد أن ينتقم من الآخر.. بغير أن يضع في حسبانه أنني في سنة البكالوريوس وان أخي بمدرسة خاصة ذات مصروفات عالية..

ولأن الهدف هو الانتقام فقد راح كل منهما يشن على الآخر حرب الدعاوى القضائية ويجيء بمحامين كبار من أساتذة الجامعات وينفق على قضاياه من المال ما نتحسر أنا وشقيقى حين نتذكره ونحن نبيت في تجديدات مسجد قريب من منزلنا السابق كنت أصلي فيه بانتظام خلال شهر رمضان الماضي، فإذا به يصبح مأواي أنا وشقيقي إلى أن يقضي الله في أمرنا.. وإنني أتساءل يا سيدى هل تتغير النفوس من الحب إلى الكراهية العمياء والرغبة العارمة في الانتقام من الطرف الآخر على هذا النحو؟.. وهل تشمل هذه التغيرات في المشاعر.. مشاعر الآباء والأمهات تجاه الأبناء فتتحول من الحب والعطف والاهتمام والعطاء.. إلى اللامبالاة والجحود، وعدم الاهتمام؟.

وهل توجد «العاطفة» في الإنسان تجاه أبنائه كما توجد في الحيوانات غير العاقلة تجاه أبنائها؟.. وهل نحن المخطئان فيما حدث بين أبي وأمي؟ دعني أقل إن لنا نصيبا من ذلك لكن هل يكفي هذا النصيب لتفسير ما يحدث الآن.. وهل تستطيع أنت أن تفسر لنا ما يفعله بنا أبي وأمي كل منهما من ناحيته خاصة رفض كل منهما أن يضمنا إليه أو يوجد لنا مأوى كريما؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

نعم.. أستطيع «للأسف» أن أفسر لك بعض ما تتعرض له الآن أنت وشقيقك من أذي في هذا الصراع الدائر بين أبويك على كل الجبهات.. أما إنني أستطيع ذلك «للأسف» فلأن ما سوف أقوله لك هو أسوأ التفسيرات وأبشعها وأبعدها عن الرحمة والعدل والدين وبر الأبوين بأبنائهما.. إذ أنني لا أجد مدخلا لفهم كيف يصبح فجأة شابان كانا حتى وقت قريب قرة أعين أبويهما بلا مأوى مستقر ولا مهجع يرجعان إليه سوى تجديدات مسجد كان أحدهما يصلى فيه في رمضان، سوى أن أبويك وقد أنفلت عقال رغبة كل منهما في الانتقام من الآخر وإيلامه وتنغيص الحياة الجديدة عليه، قد رغب في أن «يصدر » مشكلة أبنائه إلى الطرف الآخر، منتظرا منه أن «يضحي » دونه بتحمل تبعاتها لكي تصفو له هو حياته وحين أثبتت والدتك أنها ليست « أضعف » من أبيك فيما يتعلق بمشاعرها الأمومية تجاه أبنائها ولا أقل منه رغبة في التخلص من مسئوليتهما وعدم التوقف أمامها وهي تشق طريقها الجديد في الحياة. فلقد أصبحت رغبة كل طرف منهما الآن ليست فقط أن يصدر مشكلة أبنائه إلى الطرف الآخر، وإنما أن يزعجه بها وينغص عليه صفو حياته الجديدة، فإن لم ينجح في ذلك فلعله على الأقل يستطيع أن يثقل ضميره بأمرها وأن يخصم من صفاء حياته الجديدة بقدر ما يشعره بالذنب تجاه هؤلاء الأبناء، فإن لم يتحقق له شيء من ذلك فلعله يستطيع - وهو المطلوب في كل الأحوال - أن ينقص من اعتباره لدي الآخرين ويظهره بمظهر من لا يعنيه مصير أبنائه في غمار طلبه لياقته الشخصية واهتمامه بحياته الخاصة.

ولأن الهدف هو الانتقام وليد البحث عن حل عادل للمشكلة، فلقد أغلق كل من أبويك بابه في وجهيكما، ولم يحتمل حتى فكرة الشاذلي عن بعض أسباب راحته وسعادته في حياته الجديدة، بقبول إقامتكما لديه ولو بالتبادل مع شريكه السابق، فكأنما يراهن بذلك على قدرة الطرف الآخر على احتمال تشرد أبنائه.. وينتظر الوقت الذي «يضعف» فيه قبل الآخر ويضم ايديه إليه ولو أدى ذلك إلى تعثر حياته الجديدة.. فيتحقق المطلوب وينتصر الطرف الأكثر أنانية.. ويفوز في صراع الديناصورات التي لا يكف أحدهما عن الآخر حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة..

وهكذا اتفقت إرادة الطرفين أو أنانيتهما على الأصح على ألا يفعل كل منهما شيئا جادا لحل مشكلة المأوى الملائم لكما.. مكتفيا فيما يبدو بمدكما ببعض نفقاتكما كأنما يرغب بذلك في أن تظل قضية الابنين المشردين حية في ضمير الطرف الآخر تذكره بالثمن الباهظ الذي دفعاه ثمنا لاختياره الذاتي لسعادته بعيدا عنهما.. وحية أيضا في مجتمعه العائلي تذكر أفراده بمدى ذاتيته وعدم استعداده للتضحية ببعض اعتباراته الشخصية من أجل ابنيه، تماما كما تفعل بعض الدول حين ترفض بإصرار منح جنسيتها لمن يلجأون إليها في ظروف الحروب أو المجاعات، لكي تظل مشكلتهم حية تؤرق الضمير العالمي وتدفعه للبحث عن حلول جذرية تهادهم إلى بلادهم الأصلية. غير أن ما يمكن القبول به في السياسة في بعض الأحيان، لا يمكن أبدا القبول به في العلاقات الإنسانية وعلى الأخص في علاقة الأبوين بأبنائهما ولقد نسي أبواك للأسف في غمرة هذا الصراع الدامي بينهما أنه إنما ينتقم كل منهما من الآخر في أبنائه هو وليس في أبناء الطرف الآخر وحده، وأن رغبته في «ازعاج» الطرف الآخر بمشكلة الابنين أو ثبات تخليه عنهما طلبا لأنه لا يدفع ثمنها في النهاية سوى هذين الابنين.. وما أبشعها ساحة للصراع والانتقام..

وما أخس الفوز فيها والانتصار.. «وكفى بالمرء اثما أن يضيع من يقوت» كما يقول لنا مضمون الحديث الشريف، غير أنني مازلت بالرغم من كل ذلك أعجب لهذا الانهيار المفاجيء في حياتك أنت وشقيقك حتى لتصبحا معا فجأة بلا مأوى.. ولا أمل في مستقر قريب.. وأتساءل: وأين أعمامك وأخوالك وأهلك الأقربون؟.. وأين سعيهم مع الطرفين لكي يضع كل منهما مصيركما المجهول في اعتباره وهو يشن حرب القضايا على شريكه السابق ويدفع الأتعاب الباهظة للمحامين الكبار؟.. ولماذا لم يفكر أحدهما في تدبير مأوى لكما ولو في شقة مفروشة ببعض هذا المال الذي ينفقه على القضايا والصراع؟!

فإذا كنت تسألني هل «توجد» لدى الإنسان نفس العاطفة التي توجد لدى الحيوان تجاه ابنائه.. فإن سؤالك الأليم ليس سؤالا تنتظر الاجابة عنه، وإنما هو زفرة صدر ممرور مما قد تتردى إليه في بعض الأحيان مشاعر البعض من جحود وأنانية ولا مبالاة بمصير ثمرات القلوب.. وإذا كان ثمة سؤال يبحث عن إجابة له حقا.. فهو هذا السؤال الذي أتوقف أمامه كثيرا في مثل هذه المآسي الزوجية.. وهو كيف تحول الحب الذي تحدى به أبواك الجميع في بداية ارتباطهما إلى كراهية ضارية للطرف الآخر ورغبة وحشية في الانتقام منه ولو بطعنة في صدر أبنائه منه؟

ألا يلاحظ معي البعض أن كثيرا من هذه الماسي قد بدأت بحب «تحدى به طرفاه الجميع» وتمسكا به ونجحا في فرض إرادتهما على الآخرين مما يعني أنه كان من البداية ارتباطا لا يرشحه العقلاء للنجاح والاستمرار ويرون فيه ما لا يراه طرفاه اللذان حجبت عنهما العاطفة الهوجاء تعارضه من البداية مع أحكام العقل؟!

إن المثل الهولندي القديم يقول: «إن الحب إذا انقلب إلى كراهية فإنه لا يعرف حدودا» وبعض علماء النفس يقولون لنا: «إن الكراهية قد تصبح في بعض الأحيان هي الوجه الآخر للحب» وأن هناك نوعا مركبا من العلاقات العاطفية يصفونه بأنه علاقة الحب - الكره، التي تجتمع فيها المشاعر المتناقضة نتيجة لأن أحد الطرفين ينقم على الآخر بعض تصرفاته فيكرهه من أجلها.. لكنه ينجذب إليه في نفس الوقت بعاطفة أقوى هي عاطفة الحب فيتواصل معه منطويا له على هذه المشاعر المتناقضة.. غير أنني على الناحية الأخرى أؤمن بأن الحب الحقيقي لا يمكن أن يتحول ذات يوم إلى كراهية حقيقية للطرف الأخر، وأنه قد يفتر أو يموت لكنه لا ينقلب أبدا إلى النقيض ولا يدفع صاحبه إلى السعي لإيذاء شريكه السابق أو تدميره، لهذا فإنني أتحفظ على حكاية الحب الذي تحدي به أبواك الجميع في بداية حياتهما معا هذه.. كما أتحفظ كذلك على كل المعاني البشعة التي يعكسها انصراف كل من أبويك لحياته الجديدة، وصراعه مع شريكه السابق بغير أن يجهد نفسه بالتوقف أو التفكر في مصير ابنيه من هذا الحب السابق المزعوم!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النظرة الأخرى

أنا سيدة في الثامنة والثلاثين من العمر زوجة لرجل محترم في مركز مرموق طيب القلب وعلى خلق كريم، وقد أنجبنا ثلاثة أبناء أكبرهم الآن في المرحلة الثانوية، وقد أحببت زوجي منذ عرفته ومازلت أشعر تجاهه بالحب العميق وأحسن معاشرته وأستريح إليه ولا أشعر بوجود أي نقص في حياتي وأنا معه، وقد مضت رحلتنا في الحياة سعيدة وهانئة وخالية من المنغصات ولم يحدث بيننا طوال حياتنا معا أية خلافات جادة، وإذا اختلفنا حول أمر من الأمور الهينة فما أسرع ما ينتهي، وما أسرع ما أصفح وأنسي لأنني أحب زوجي.. وأقدر له عشرته الجميلة وحنو قلبه ورقته، غير أنه قد جد جديد كدر على صفو حياتى، وجعلني أنطوى على نفسي وأبكي كثيرا ولا أجرؤ على أن أشكو لأحد منه.. فنحن نقيم في عمارة بأحد أحياء القاهرة ويقيم بالقرب منا أحد أقارب زوجي، وهو رجل يقترب من الستين ويعتبر في منزلة عم زوجى، وزوجته سيدة محترمة وفاضلة تعاملني بكل الحب والاحترام وتوجهني لما فيه خيرى وخير أسرتي وأبنائي، ولا تبخل عليّ بالمشورة والنصيحة، واعتبرها بمثابة أم لى، أما زوجها فقد كان دائما ينظر إلى باعتبارى ابنة له وأنظر إليه باعتباره أبا لي، لكنه ومنذ فترة غير قصيرة تغيرت نظراته لى فجأة وأصبح ينظر إلى « نظرة أخرى » ويفرض نفسه علىّ ويتعامل معي بأسلوب رخيص لا أقبله لنفسي، كما بدأ يقول لي كلاما عجيبا بدعوى المزاح والتهريج عن أنني جميلة وجسمى كقطعة من الشيكولاتة وكيف أنني « خسارة في زوجى» وأنه يحبني.. إلى آخر هذا الكلام الرخيص العجيب.. وقد اندهشت لهذا الكلام في البداية واعتبرته نوعا من المجاملة الزائدة لكني انزعجت له بعد قليل وشعرت بالخوف الشديد من هذا الرجل، ورفضت أن أتجاوب معه في هذا التهريج السخيف وبعد أن كنت أثق فيه وأرحب بوجوده في بيتي في أي وقت، أصبحت أخاف منه وأخشى أن يدخل بيتى في غياب زوجي، ولقد أجبت على كلامه الغريب لي بأنني أحب زوجي، وأنه هو وأبنائي هم أغلى ما في الوجود بالنسبة لي، لكنه لم يكن بالرغم من ذلك عن هذا التهريج وواصل محاولاته السمجة معي وتحيرت طويلا ماذا أفعل معه.. وكيف أعيده إلى الطريق السليم.. وشعرت بضيق شديد ولم أستطع تحمل هذا البلاء طويلا وتشجعت قليلا فألمحت لزوجي بأن عمه يضايقني ويغازلني، فلم يصدق ذلك في البداية ودهش له كثيرا، وفسره بأنه مجرد مزاح وتهريج من رجل كبير يعتبرني في منزلة ابنته ورجاني ألا أردد هذا الكلام لأي إنسان آخر سواه حتى لا أتسبب في فضيحة كبيرة للأسرة كلها وشعرت بالعجز والقهر إزاء ذلك لأنني خجلت من أن أصارح زوجي بأكثر مما قلت له مما لا يمكن أن يكون مجالا لأي تفسير برئ لما يفعله عمه، وكتمت ضيقي في نفسي وواصلت حياتى على أمل أن يكف الرجل عما يفعل ويرجع إلى سابق عهده معى، لكنه لم يكف ولم يتوقف وإنما تمادى فيه وبدأ يحاول أن يلمسني بحركات تبدو في الظاهر بريئة، كأن يفتعل الاصطدام بى عفوا إلى آخر هذه الألاعيب الرخيصة، ولم أطق صبرا على ذلك وألمحت لزوجي مرة أخرى بأن قريبه لم يتوقف عن مضايقتي وإنما تجرأ أكثر علىّ، فطالبني بالتحفظ إزاءه وتجنب فرص اللقاء معه ومع زوجته، ففعلت، وأصبحت لا أكاد أغادر

غرفتي، ومع ذلك لم يرحمني هذا الرجل، ولم يكف عما يفعل فأصبحت لا أطيق مرآه وأخشاه، وأصبح أبنائي يضيقون بتصرفاته المراهقة، وزوجي لا يدرك عمق المشكلة لأنني لم أصارحه بكل شيء حرجا منه، ولكيلا تحدث كارثة أو فضيحة عائلية بسببي، كما أنني لم أرد أن أهين هذا الرجل أو أن أحرجه مراعاة لزوجته.. فماذا أفعل حتى أتخلص من هذا البلاء.. هل أصارح زوجته وأولاده بما يفعل معي؟.. وكيف يكون الحال لو ظنت زوجته أنني أشجعه على ما يفعل؟.. إنني أرجوك أن توجه إليه كلمة، أن يتقي الله في حرمة البيوت.. وأن يمتنع من تلقاء نفسه عن دخول بيتى في غيبة زوجي.. وأن يعلم جيدا أنني أحب زوجي وأحترمه، وأرفض هذا الانحدار وشكرا لك.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

هناك حقيقة نفسية نحتاج لأن نعرفها ونحسن التصرف إزاءها على ضوء ادراكها وفهمها وليس عن جهل بها.. أما هذه الحقيقة فهي أن الرجل إذا استجاب لبعض عوارض ما يسمى بأزمة منتصف العمر وتملكته الرغبة في أن يثبت لنفسه أنه مازال القادر على التأثير في الجنس الآخر، فإنه قد يتوجه بمحاولاته هذه إلى من يحطن به من النساء في دائرته العائلية القريبة بنفس القدر الذي قد يتوجه به - إذا اتيحت له الفرص - لمن يعرفهن في دائرة العمل والصداقات، لهذا فإن تعامل المرأة المتزوجة مع الرجال من دائرة الأهل المقربين على أساس أنهم أقرباء مبرؤون من رغبات الرجال الغرباء وبعيدون عن التأثر بنزواتهم وأهوائهم خطأ مبدئي ينبغي الاحتراس منه.. لأن تغير نظرة الرجال لمن حولهم من نساء الأسرة أمر وارد من الناحية النفسية في أي مرحلة من العمر، ومن واجب الزوجة المحصنة ألا تنسى في تعاملها معهم أنهم وإن كانوا من الأهل المقربين، إلا أنهم في البداية وفي النهاية رجال لهم بدواتهم ونزواتهم وأهواؤهم الجامحة في بعض الأحيان، ويقتضي ذلك منها ألا تركن إلى الثقة في عدم احتمال تغير نظرتهم إليها ذات يوم، وأن تلتزم في التعامل معهم بما تلتزم به من التحفظ الحكيم في التعامل مع غيرهم من الرجال، وأن تحذر التمادي معهم فيما يغريهم بها وبالاجتراء عليها بالمغازلة، ذلك أن بداية الخطأ في العلاقة بين المرأة المتزوجة والطامع فيها هو « تقبلها» ولو من باب الحرج لإعجابه بجمالها الجسدي، أو تجاوزها عنه بغير لفت نظره بالنظرة الصامتة.. وبملامح الوجه المتحفظة والمتجهمة إلى أنه قد طرق بابا لا يحق له مهما تكن قرابته أو صلته بها، أن يطرقه ويكفي ذلك في بعض الأحيان وحده لأن يردع ذوي الحياء من تكرار المحاولة، بغير الحاجة إلى صدام علنى معهم أو أثارة زوابع عائلية غير مأمونة العواقب. أما السكوت على كلمات الإعجاب لجمال المرأة المتزوجة من رجل أجنبي منها إما تحرجا من أدراج قائلها أي طربا لها فإنه يمثل بالنسبة له دعوة ضمنية للاستمرار في المحاولة ومواصلة إطلاق السهام المسمومة إلى أن تصيب الهدف، لا فرق في ذلك بين قريب وغريب ولا بين شاب ورجل في الستين، وبعض الرجال يتعاملون مع المرأة بمنطق الروائي الفرنسي جي دى

موباسان الذي كان يقول إن المرأة قد تغفر الرجل مغازلته لها واعتراضه لطريقها، لكنها لا تغفر له أبدا إهماله لها أو عدم تأثره بجمالها!!

وهو منطق فاسد بغير شك.. يقابله المنطق الآخر الذي تؤمن به الفضليات من النساء والذي تعتبر معه المرأة المتزوجة محاولة أي رجل آخر لمغازلتها مع علمه المسبق بأنها زوجة لغيره إهانة صريحة لأخلاقياتها واتهاما معيبا لعفتها وإخلاصها.. وشهادة علنية من جانبه بسوء ظنه في سلوكها ومبادئها، إذ لو كان ينطوي لها بالفعل على ما تستحقه من احترام لأخلاقياتها ووضعها كزوجة وأم.. لما تصور إمكان تساهلها في هذه المبادئ أو استعدادها للتجاوب مع غزله، ومن هذا المنطلق يكون رد فعلها على من يتهمها بسوء الخلق صاعقا ومكافئا لسوء ظنه بها، ويكون استياؤها منه بالغا وحاسما ولا يعطيه أية بارقة أمل في إمكان تكرار المحاولة.. ولا يعني ذلك أبدا أن يكون رد الفعل هذا صاخبا أو ملحوظا من الآخرين، أو سببا في إثارة فضيحة عائلية.. وإنما يعني فقط أن يكون صارما ومزيلا لكل شبهة في نفس المجترئ عليها بغزله ودعوته لها إلى الخطأ والمرأة قادرة دائما على ان تصعق كل من يجترئ عليها ولو بنظرة واحدة منها توقيفه عند حده.. وبتعبير الاستياء الصارم على وجهها الذي ينبئه بأنه قد أخطأ الطريق من البداية..

أما «التحاور» معه ومحاولة اقناعه بأنها تحب زوجها وأولادها ولا تعدل بغيرهم أحدا، فإنه لا يمثل بالنسبة للمجترئ عليها سوى «بداية» طيبة للحوار حول الموضوع.. واشارة خاطئة إلى أنه موضوع قابل أصلا للمناقشة فيأمل أن تستمر المناقشة حوله وأن ينجح مع استطراد الحوار في أن يثقب جدار الرفض ذات يوم.. والنسمة الخفيفة التي تطفيئ الشمعة هي نفسها التي تذكى النار كما يقول لنا الحكيم الفرنسي لاروشفوكو، ولهذا فإن مجرد تبادل مثل هذا الحوار بين زوجة محصنة ورجل أجنبي عنها إنما يعني من حيث قد لا تشعر هي أنها قد رفعت بالفعل درجة العلاقة بينهما إلى مستوى الخصوصية الذي يسمح لهما بتبادل هذا الحوار السري الذي لا يسعدهما أن يطلع عليه غيرهما.. حتى ولو كانت نية الزوجة صادقة بالفعل في التمسك بإخلاصها والتزاماتها الأخلاقية، والإمام الشافعي كان يقول لأصحابه: «نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل»..

لهذا فأنت يا سيدتي لست في حاجة لأن تناشدي هذا الرجل العابث أن يكف أذاه عنك وأن يرعى حرمة البيت الذي ائتمنه صاحبه على دخوله، لأن كل ذلك لن يجدي معه فتيلا.. وإنما أنت تحتاجين فقط إلى أن توقفي هذا الحوار الذي لا طائل تحته معه.. وأن تصعقيه بنظرات الغاضبة، وازدرائك له وتجنبك لرؤيته والترحيب به، في بيتكِ سواء في حضور زوجك أو غيبته، وتفاديك أية فرصة يمكن أن يتحدث إليك خلالها حديثه المسموم هذا أو يقترب منك.. وسيكون ذلك أبلغ تأثيرا فيه من أي مناشدة من جانبي أو «حوار» آخر من جانبك عن حبك لزوجك واخلاصك له، فإن لم يرتدع عن غيه بعد كل ذلك فلا مفر من مصارحة زوجك بالحقيقة الكاملة ليرى رأيه فيما يفعل قريبه.. ويتخذ من الإجراءات ما يحفظ عليك كرامتك ويحميكِ من اجتراء هذا السفيه عليك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النظرات المتبادلة

أنا سيدة تجاوزت الأربعين بقليل.. زوجة وأم لثلاثة أبناء ومشكلتي للأسف ليست كغيرها من مشاكل الحياة الزوجية، وإنما حكمت عليّ الأقدار بأن أكابد مشكلة من المشكلات التي لا يستطيع من يعانيها أن يتخفف من ثقلها الجاثم على صدره بالحديث عنها والشكوى منها لأحد مهما كان مقربا منه.. فلى شقيقة تصغرني بثماني سنوات وهي زوجة وأم مثلي.. وقد فتحت لها صدري وبيتي واصطحبتها معي في نزهاتى وخروجى إلى النادي واجازاتنا الصيفية بالرغم مما كنت أشعر به من غيرتها المكتومة مني لأن زوجي أفضل من الناحية المادية من زوجها..

ومنذ فترة غير قصيرة بدأت ألاحظ شيئا غريبا كنت في البداية أرفض تصديقه ثم اضطرتني الأحوال العجيبة إلى التسليم به، فلقد بدأت ألاحظ نظرات العشق والهيام المتبادلة بينها وبين زوجي! كما بدأت ألاحظ اهتمام زوجي الشديد بها وحرصه على أن ترافقنا في كل مكان نذهب إليه، وسعادته الواضحة وحيويته وابتهاجه حين تكون معنا.. وملله وجموده وصمته حين نكون في مكان لا توجد فيه.. وبالرغم من كل ذلك حاولت الا أصدق ما أرى وأنكرته بشدة وقلت لنفسي إنها ليست سوى العلاقة الحميمة التي تجمع بين «أخ» و «أخته»! إلى أن ذهبنا إلى المصيف في العام الماضي وهى معنا.. وبدأ الشك يتحول عندي إلى جحيم، فقد كانا يختفيان فجأة بالساعات ثم يظهران منفصلين أحدهما وراء الآخر بربع ساعة، ويقدم كل منهما تفسيرا غير مقنع لغيابه المفاجيء.. واكتويت بالغيرة والحزن الشديدين وعند العودة من المصيف تكرر الاختفاء الغامض إلى أن علمت عن يقين أنهما يلتقيان كل يوم ويمضيان معا بضع ساعات بعيدا عني.. وتأكدت من ذلك بما لا يدع أي مجال للشك فماذا أفعل يا سيدي لكي أتخلي من هذا الجحيم الذي لا يدرك أحد لظاه سواى! إنني إذا طلبت من زوجي الطلاق فلن يمانع فيه.. بل سيرحب به لكي تزول العقبة الكؤود من طريقهما.

ولو فعلت ذلك وطلقني بالفعل.. فماذا ستفعل أختي التي باعتني على هذا النحو الرهيب؟.. هل ستحصل على الطلاق من زوجها لتتزوج من زوجي وهذا ما أرجحه؟ وهبها فعلت ذلك فكيف ستكون صورتها أمام العائلة والأبناء؟ وإذا لم أفاتح زوجي ولم أطلب منه الطلاق.. كيف استطيع احتمال حياتي وأنا أعلم علم اليقين أنه يلتقي بها كل يوم وأنها قد أصبحت «زوجته» أكثر مني ولها عليه من الحقوق ما لم يعد لي عليه منها؟ هل انتحر أم أقتلهما معا.. أم ماذا أفعل؟

لقد فكرت في مقاطعتها مقاطعة تامة لكي استريح من رؤية «الحب» في عيونهما؟ لكن هذا الحل سيساعدهما على الالتقاء أكثر، وإذا استمريت في علاقتي بها فإني احترق بنيران الجحيم وأنا أراها تستولى على زوجى منى ولست في الحقيقة ألومه بقدر ما ألوم هذه الأخت الشيطانة التي لا تعرف غير رغباتها ومتعتها ولو كانت غير مشروعة، ولا تخاف من ربها ولا تخشى على من انهيار بيتى، ولهذا فإنني أوجه اللوم كل اللوم لها، لأن المرأة هي المسئولة بالدرجة الأولى عن اجتذاب الرجل أو صده عنها ولأن زوجي لم يكن ليستطيع أن يقترب منها إلا إذا كان قد

وجد كل التشجيع، وكل الاستعداد منها.. فكيف هانت عليها نفسها وهنت أنا عليها إلى هذا الحد المشين - وكيف ترضي لي - أنا أختها وصديقتها – بما لا ترضاه لنفسها وهي ترى العذاب والألم في عينى وتعلم أنها السبب فيهما دون أن تتوقف عما تفعل؟

إنني أرجوك أن توجه لها كلمة بأن ترعى الله فينا جميعا، وفي أبنائنا لأنني لا أستطيع مواجهتها، حيث أعلم جيدا أنها وزوجي سوف يستمران فيما يفعلان مهما واجهتهما لأنها تثق بأن زوجى يحبها أكثر مني ومن حقها أن تفعل ما تريد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

هناك «أحوال» لا مفر من التعامل معها بمشرط الجراح الذي يفضل البتر والاستئصال، على محاولات العلاج التي لا تجدى سوى انتشار الداء في بقية الجسم.

وقصتك المحزنة هذه من هذه الأحوال التي لا مفر من التعامل معها بمنطق البتر والاستئصال، والاجراء الوحيد الملائم لها هو مواجهة الزوج أولا ومطالبته بالانفصال أو على الأقل بالاختيار بين الكف عما يفعل بلا رجعة أو الطلاق، ثم مواجهة مثل هذه الأخت التي لم ترع للأخوة حرمة بجريمتها ومقاطعتها مقاطعة تامة ناجزة لا تجمل فيها ولا مداراة إلى أن تفيق من غيها وتندم ندما صادقا على جنايتها وتكفر عنها تكفيرا كاملا ولو بعد حين..

غير أنك - وكما فهمت من رسالتك - لا ترغبين في أن تفقدي زوجك أو أن تنفصلي عنه وتعلمين على يقين أن انسحابك من حياته الآن لن يكون له من عائد سوى أن يخلو له ولشريكته المجال لاستكمال خطتهما الشائنة.. وقد لا يمضي على انفصالك عن زوجك وقت طويل حتي تكون هي قد حصلت على حريتها من زوجها.. وتوجت قصتها المخجلة مع زوج أختها بالزواج منه ضاربة بذلك لأبنائها وأبنائك أسوأ المثل على انعدام الوفاء في الحياة.. وامتهان القيم العائلية والإنسانية جريا وراء الأهواء والرغبات.. وصانعة بذلك مأساة «إغريقية» جديدة تهتز فيها المثل والقيم في مخيلة الأبناء.

ولأن الأمر كذلك فإني أنصحك بمجافاة هذه الأخت اللعينة ومقاطعتها في صمت مقاطعة لا تتيح لها فرصة الوجود في حياتك الأسرية بلا أي محاولة من جانبك للشرح أو التفسير تاركة لها بذلك أن تفهم عنك أنك لن تقفي من الآن ذلك الموقف السلبي العاجز مما يجري حولك، حتى ولو كان ثمن ذلك هو اتاحة الفرص أكثر لهما للالتقاء في غيبتك.. ذلك أن وجودها في حياتك العائلية لم يحل ولن يحول بينها وبين ما تفعله مع زوجك.. وعلاقتك بها لا تردعها عن الاستمرار فيها.. فما معنى اذن أن تتعذبي بملاحظة مشاهد الحب والاتصال بين الطرفين وأنت تحترقين بنيران الجحيم في أعماقك ولا تستطيعين البوح بما تتعذبين به أو الشكوى منه!

أما زوجك فلقد كنت أفضل المواجهة الصريحة معه وتخييره بين الكف عما يفعل.. أو الانفصال عنه، لكنك لا تقدرين على تبعات هذه المواجهة.. وتشعرين بضعف موقفك فيها مع أنه هو من ينبغي له أن يشعر بضعف موقفه وتخاذله في هذا الوضع الشائن..

وما دام الأمر كذلك فلقد يكون من المفيد في معركتك للاحتفاظ به وحمايته من براثن الأخرى، أن تلمحي له بغير تصريح إلى فهمك لما يدور أمامك ورفضك القاطع له، وتمسكك بالرغم من جراحك وأحزانك بالأمل فيه وفي عودته ذات يوم قريب إلى الطريق القويم.. حرصا عليه مما لا ترضينه له من الاستمرار في الدنس والخطيئة وفقد الاعتبار، وإعلاء لسعادة الأبناء واستقرارهم على كل الاعتبارات، عسى أن يفيق من غيه ويخجل من نفسه ويرجع إلى رشده ويعرف أن من تضحي بأختها وبكل القيم الدينية والأخلاقية والعائلية لكي تظفر به لا تساوي في حقيقة الأمر قلامة ظفر.. ولا تستحق أن يفقد من أجلها زوجته وأم ابنائه واستقرار حياته العائلية.. و «صورته» كزوج وأب ورب أسرة ينبغي أن يكون له ما لأمثاله من احترام وإجلال في عيون من حوله.. أما مناشدة تلك «الأخت» فلا طائل تحتها ومثيلاتها قد لا يجدي معهن سوى التهديد بهتك سترها أمام زوجها وأبنائها غير أن أختك الفريدة من نوعها «تتميز» عليهن بشىء آخر ليس في صالحك للأسف الآن.. وهو أنها ليست حريصة على زوجها ولا أبنائها ولقد يسعدها أن تتورطي في تصعيد الأمر معها على هذا النحو بما يؤدي إلى انهيار حياتها الزوجية فتضيف بذلك إلى «مؤهلاتها» لدى زوجك المسلوب مؤهلا جديدا هو أنها - واحسرتاه - قد خسرت حياتها العائلية من أجله وبالتالي فإن واجبه أن يعوضها عما خسرت، بالانفصال عنك.. والزواج منها واستكمال فصول هذه المأساة الأخلاقية المخيفة.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حصاد الصـــبر!

أكتب لك هذه الرسالة في مناسبة مهمة في حياتي أردت أن أشرك معي فيها وأن أذكرك بدورك الذي قد تكون نسيته الآن في إتمامها.. فأنا مهندس شاب بوزارة الري عمري 38 عاما وأما بداية القصة فلعلك تذكر الرسالة التي نشرتها منذ أكثر من عامين بعنوان «الإصرار» وكانت لسيدة متزوجة ولها طفلتان تروي لك فيها عن جارتها الشابة الجميلة البالغة من العمر 29 عاما وتقيم بجوارها في شقة وحدها.. وتقول لك في رسالتها أن قصة هذه الفتاة قد بدأت منذ سنوات حين كانت في طريقها إلى كليتها بجامعة عين شم فصدمتها سيارة مسرعة وحملها المارة إلى المستشفى فتبين أنها قد أصيبت للأسف بشرخ في العمود الفقري، وبعد رحلة عناء طويلة بالمستشفيات في الداخل والخارج، رجعت إلى حياتها جالسة فوق مقعد متحرك، ولم تترفق بها الأقدار فرحلت أمها عن الحياة بعد قليل، ووجدت نفسها وحيدة في مسكنها الخالي بعد زواج الإخوة، وانشغال الأب الذي يقيم في مسكن آخر بحياته وأعماله، ولأن كل إنسان مشغول بحياته فلقد أصبحت وحيدة تماما في مسكنها المجهز بكل الأجهزة وتقوم بشئون نفسها وتنظف شقتها وتطهو طعامها، وتقدم إليها رجل متزوج فرفضت أن تطلب سعادتها على حساب تعاسة إنسانة أخرى، وتقدم إليها من جاءها طامعا في مالها وحده فرفضته لأنها ترجو أن يجمعها ربها بمن يرغبها لنفسها فتحبه ويحبها، وفي النهاية طلبت منك هذه السيدة الفاضلة أن تكتب لجارتها الشابة أن الاعاقة ليست نهاية الحياة وأن أحلامها ممكنة التحقق حين يأذن الله بذلك..

ونشرت الرسالة ورددت عليها بما ألهمه الله لك من كلمات طيبة ومشجعة مؤكدا للفتاة ولمثيلاتها أن نسبة نجاح الزواج واستمراره في الحالات الإنسانية المتابعة أعلى منها بقدر ملحوظ في الحالات العادية، وأن خبراء الاستشارات الأسرية في الغرب يرجعون ذلك إلى أن درجة الإصرار على النجاح تكون عالية للغاية عند الطرف الذي يعاني من الحالة الإنسانية، فيبذل كل ما في وسعه لإنجاح الزواج ويجد ذلك صداه المتوقع لدى الطرف الآخر فيتجاوز الطرفان الهنات الصغيرة التي قد يتوقف عندها الآخرون في الظروف الطبيعية..

وفي هذه الفترة كنت أمر بأزمة نفسية شديدة بسبب الأحزان التي هبت على حياتي قبل فترة قصيرة، وليلة نشر هذه الرسالة كان ألمي قد بلغ مني حدا مضاعفا، وشكوت إلى صديق متدين ما يضيق به صدرى فنصحني بأن أدعو ربي في صلاة الفجر كل ليلة بهذا الدعاء: «رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير»، وسألني لماذا لا أمضى هذه الليلة معه في المسجد حتى نصلي الفجر معا عسى أن يذهب الله عني الحزن، واستجبت لما نصحني به وأمضيت تلك الليلة معه في المسجد قائما أصلي.. أو جالسا أقرأ القرآن الكريم، أو متأملا في صمت.. وفي الصباح المبكر خرجت إلى الشوارع واشتريت الصحيفة فوجدت فيها قصة هذه الفتاة فشعرت بأنها قد تكون ضالتي التي أبحث عنها دون جدوى، ووجدت نفسي أكتب إليك معلقا على قصتها.

ونشرت رسالتى بعنوان « العاصفة » ورويت لك فيها أنني مهندس عمري 36 سنة - وقتها - وإنه كانت لي ذات يوم قريب أسرة صغيرة وزوجة غير مصرية تزوجتها بالرغم من معارضة أهلي لزواجي منها، وإن هذا الزواج كان بداية العاصفة من الأحزان في حياتي الخامدة حيث رحل أبي عن الحياة عقب زواجي مباشرة، ومن بعده أمي أيضا يرحمهما الله، ثم لم يمض وقت طويل على رحيلهما حتى سقطت طفلتي الوحيدة من الدور الثالث بسبب إهمال أمها في رعايتها، ورحلت هي الأخرى عن دنيا الألم والأحزان، فلم أستطع احتمال الحياة مع زوجتي بعد ذلك وانفصلت عنها بالطلاق، وعشت وحيدا في شقة بإحدى المدن الجديدة ولم يعد لي من أهل سوى شقيقين يقيمان في حي بعيد، وفي ختام رسالتي إليك تساءلت ترى هل تقبل هذه الفتاة الارتباط بي على سنة الله ورسوله عسى أن يواسى كل منا الآخر ويعوضه عن وحدته وأحزانه الماضية؟. وبعد أيام من نشر الرسالة زارتك هذه الفتاة في مكتبك فوق مقعدها المتحرك يصحبها عمها، وقمتم بتسليم العم عروض الارتباط التي تلقاها مكتبكم بشأنها، وفوجئت بعد أيام باتصال من والدها بي يدعونى فيه إلى مقابلته في بيته، فتوجهت إليه مستبشرا ومؤملا أن يحقق الله لي أمنيتي في السعادة والأمان، فكان لقائي الأول بالأب في مسكنه الذي يعيش به مع ابنه الأصغر وحدهما ولم أجد الفتاة المقصودة.. وشرحت للأب ظروفي ورغبتي في الارتباط بابنته فلمست منه التحفظ وعدم الترحيب، ثم طلب مني الانصراف بعد قليل لأن هناك زائرا آخر عن طريق بريد الجمعة سيحضر لمقابلته بشأن ابنته!

وانصرفت متخاذلا ومتشائما وشكوت لصديقي الذي علمني الدعاء المفضل ما لقيت من تحفظ الأب وعدم ترحيبه بى.. وأرجعت ذلك إلى ظروفي كمطلق.. فسألني ولماذا لا تطرق بابا آخر كعمها مثلا، ونفذت النصيحة وتم اللقاء بيني وبين هذه الفتاة لأول مرة في بيت عمتها، فما إن ألتقيت بها والتقت بى حتى قضى الأمر الذي كنتم فيه تختلفون.. وشعرت بأنها الفتاة التي كنت أبحث عنها من قديم الزمان، وقالت هي لعمتها عني إنني الشخص الذي رأته في أحلامها يأتي إليها.. ويملأ فراغ حياتها بالحب والحنان.. واتفقنا على الارتباط.. لكني علمت أن والدها لا يشعر تجاهي بالارتياح وأنه يرفضني لأسباب مختلفة منها ظروفي السابقة ومنها أنه تساوره الشكوك في نيتي في استغلال ظروف ابنته الإنسانية.. و«الاستفادة» من مالها وهو مبلغ حصلت عليه كتعويض من جامعة عين شمس عن الحادث الذي تعرضت له وتحتفظ به كوديعة في البنك، ولم أغضب من الأب، لكني حزنت وتعجبت كيف يصد عن ابنته شابا يرغب في الارتباط بها لمجرد ظنون ليس هناك أي دليل عليها.. وأي مال يمكن أن يسعى إليه شاب مثلي فقد طفلته الوحيدة قبل عامين ويعاني من وحدته وأحزانه؟!

ولم أدر في حينه بما دار بشأني بين الأب وابنته، لكني علمت فيما بعد أنه رفضني، وأن ابنته تمسكت بي بشدة وأعلنته برغبتها في الارتباط بى فاستجاب لها بضغط من شقيقه وشقيقته. وذهبت للقائه في مسكنه أخيرا وقرأنا الفاتحة، واستجبت لكل مطالبه بلا ممانعة.. قال لي إن مسكني بعيد، وفي الدور الثالث ولا يصلح لابنته، فوعدته بتغييره وسعيت إلى بيع شقتي بالمدينة الجديدة، وقبلت بيعها بثمن بخس،

وحدد قيمة الشبكة والمهر والمؤخر فقبلت بكل ما أراد، وطلب مني أن أعطيه ثمن الشقة بعد بيعها ليودعه في البنك باسمه إلى أن أحضر الشقة الجديدة لكيلا أتنصل من وعدي بإحضار شقة أخرى لابنته غير شقتها التي تقيم فيها وحيدة وهي صغيرة، فقبلت بذلك ووعدته به ونفذته فيما بعد بالفعل.. كل ذلك وأنا سعيد ومتفائل وأشعر بأن كل لقاء بيني وبين هذه الفتاة يقرب بيننا والأب على ما هو عليه من تحفظ وعدم حماس.. وحددنا موعد عقد القران في المسجد ورفض الأب أن يشتري لابنته فستانا أبيض رغم قدرته المالية ولا أن يسمح لى بشرائه، وقبلنا بذلك صامتين، ورفض استدعاء كوافيرة لزينة المحجبات من مثيلات ابنته وقبلنا بذلك راغمين، ورفض أن تذهب معي لشراء الشبكة، ولم أعترض على ذلك وتم عقد القران في تحفظ أقرب إلى التجهم والجفاء الصامت منه إلى الفرحة والابتهاج، وانصرف الأب عقب عقد القران وحملتنا السيارة إلى مسكن زوجتي، فما إن اقتربنا منه حتى بدأ الفرح الحقيقي الذي لم نجده من قبل.. فلقد التف حولنا جيران زوجتي الطيبون ومنهم السيدة الفاضلة التي كتبت لك عنها، وبدأ الطبل والزمر والغناء والزغاريد والابتهاج الصادق الصادر عن القلب بلا شائبة واندفعت السيدات الفاضلات وبناتهن يقبلن زوجتي ويغنين لها ويداعبنها وانفعل جار طيب على المعاش فأخرج مسدسه وأطلق منه عدة طلقات في الهواء طربا وابتهاجا بسعادة هذه الفتاة التي طالما تعاطف مع ظروفها من قبل وحمل إلينا الجيران الطعام والشراب والتورتة وشاركونا فيها..

ولم يغادرونا إلا عند منتصف الليل وهن يوصوننا بأن نبدأ حياتنا الزوجية بأداء ركعتي شكر الله عسى أن يبارك لنا في حياتنا وصحبتنا وسعادتنا..

وبدأنا حياتنا الزوجية معا وكل منا كالأرض العطشى إلى الحب والحنان والعطف من شريكه الجديد.. ووجد كل منا بغيته لدى الآخر.. فوجدت فيها الطيبة والعطف والاهتمام الزائد بى والقلق الشديد على إذا تأخرت عن موعد عودتي إليها ولو لفترة يسيرة، كما وجدت فيها أيضا ربة البيت الممتازة والطاهية الماهرة، ووجدت هي فيّ ما تقوله من أنني أعطيتها كل ما افتقدته في حياتها من قبل من حنان وحب ورعاية، وخلال حياتنا المشتركة معا بعت شقتي في المدينة الجديدة وحصلت على شقة بالدور الأرضي بالإيجار الجديد أوسع من شقة زوجتي السابقة لكي يتسع مجال الحركة أمامها.. وكتبت عقد الإيجار باسمها وفتحت بإذن من المالك بابا من المطبخ إلى الشارع ورفعت مدخله بحيث يصبح منزلقا ليسمح للكرسي المتحرك بالدخول والخروج، واشتريت بما تبقى معي من ثمن الشقة سيارة مجهزة لزوجتي وكتبتها باسمها.. وأهديتها مقعدا متحركا جديدا، وأعطيتها توكيلا عاما عنى للتصرف في كل شيء.. وسعدت زوجتي بالمسكن الجديد وصنعت لنفسها سريعا صداقات جديدة مع جيراننا لأنها تدخل القلوب بيسر، وتجد دائما من يحبونها ويتطوعون لخدمتها.. واستمرت صداقتها بالسيدة الفاضلة التي كتبت لك عنها.. ولم تمض شهور حتى كان جنين الحب يتحرك في أحشاء زوجتي، وعاشت زوجتي تجربة الحمل بمشاعر بهيجة.. واقترب موعد الولادة فحصلت من عملي على إجازة ودخلت معها المستشفى ولازمتها.. فيه حتى وضعت مولودنا الأول، ولقد فكرنا جديا في أن

نسميه باسمك لولا أن كان قد سبق منى النذر إلى الله سبحانه وتعالى أن أسميه إذا جاء ذكرا «عبد الله».. وإذا جاءت أنثي «مريم» ولقد أنعم الله علينا بعبد الله منذ 20 يوما.. وكانت هذه هي المناسبة السعيدة التي أردنا أن نشركك معنا فيها ونذكرك بقصتنا معك.. ولقد عدنا من المستشفى إلى البيت حاملين مولودنا الصغير فتلقتنا الجارة الطيبة الجديدة التي تناديها زوجتي «يا خالتي» بالنصائح المجربة في رعاية الأطفال حديثي الولادة وعلمت زوجتى كيف تتعامل مع مولودها، وكيف ترضعه وتغير ملابسه الخ.. وساعدتها في ذلك، وحملته عنها كثيرا، وعرضت عليها أن ترعاه في غيابها إذا اضطرت للخروج..

وها نحن نكتب إليك الآن بعد أكثر من عام من زواجنا وأقل من شهر من إنجابنا طفلنا الصغير لنقول لك أن «الإصرار، الذي تحدثت عنه في ردك على الرسالة الأولى يدفعنا إلى إنجاح زواجنا واستمراره.. وأن الحب الذي جمع بيننا يترسخ ويتعملق ويتعمق، ولقد غير كل ذلك من نظرتنا السابقة للحياة.. فأذهب الله عنا الحزن.. والوحدة.. والمعاناة، وأنعم علينا بالسعادة والعشرة الطيبة والاهتمام المتبادل.. وتغيرت نظرة زوجتي إلى كثير من الأشياء، فلقد كانت بتأثير من بعض ما شهدته ولمسته من آلام في حياتها، تتوجس من الدنيا وبعض الناس.. فأقنعتها بأن الخير في الدنيا إلى يوم يبعثون، ودعوتها ذات مرة إلى التجربة العملية ونحن نتجول في الشارع وهي على مقعدها المتحرك، فأبلغتها أنني سأبتعد عنها وأدعها تسأل المارة أن يساعدوها في عبور الشارع أو في شراء شيء من المحلات أو أداء أي خدمة لها، وابتعدت عنها بالفعل.. وجلست هي وحيدة في مقعدها ثم سألت أول عابر بها أن يعينها على أمرها.. فإذا بكثيرين يتوقفون للحديث معها ويبشون في وجهها ويعرضون استعدادهم لأداء خدمة لها.. فرجعت إليها مبتسما وشكرت الجميع ودفعت المقعد في طريق العودة، أما أنا فلقد انهمرت على جوائز السماء التي تتحدث عنها منذ تزوجت هذه الإنسانة الطيبة الجميلة وهطل على الرزق الحلال من أبواب السماء بلا حساب والحمد لله.. وسافرت في مهمة مندوبا من وزارة الري إلى أوغندا لمدة 8 أيام لحل مشكلة فنية في بحيرة فيكتوريا، وحصلت على بدل سفر بالعملة الصعبة لأول مرة في حياتى، كما حصلت منذ زواجي وحتى الآن على مكافآت تفوق في مجموعها كل ما حصلت عليه من مكافآت طوال مدة خدمتى، وحصلت لأول مرة في حياتي على مكافآت بأرقام فلكية بالنسبة للدوائر الحكومية.. فإن كان لزوجتي الآن من مطلب فهو أن تواصل الاهتمام بمشاكل المعوقين وتدعو الدولة للعناية بهم ورعايتهم والاهتمام بتوفير العلاج الطبيعي والوظيفي لهم لكى يتكيفوا مع حياتهم، وإلى الاهتمام بإنشاء مداخل منزلقة لهم في كل المباني العامة والعمارات كما هو الحال في الدول المتقدمة لكيلا أضطر كما تقول هي إلى حملها بمقعدها كلما ذهبنا لأداء عمل في إحدى الجهات أو زيارة إحدى الأسر..

وختاما.. فإني وزوجتي لا نملك لك في النهاية إلا الشكر والدعاء.. ونرجو أن تتقبل منا هذا المصحف المرفق وهذه المسبحة المتواضعة "رمزا للشكر والحب والعرفان.."

وأنهى رسالتي إليك بهذا الدعاء الحبيب شكرا وامتنانا الله رب العالمين: «رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير».. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

مازلت أذكر حتى الآن ملامح هذه الفتاة الطيبة حين زارتني فوق مقعدها المتحرك مع بعض ذويها عقب نشر قصتها، كما مازلت أذكر أيضا رسالتك التي تضمنت رغبتك في الارتباط بها وقصتك مع عاصفة الأحزان التي عصفت بحياتك قبلها.

فأية سعادة أن أعرف الآن أن الأقدار الرحيمة قد مسحت على أحزانكما معا وجمعت بينكما في بيت هانىء صغير.. أثمر الحب فيه ثمرته المباركة ووهبكما الله من لدنه غلاما جميلا؟

إن في العالم - كما يقول الكاتب المسرحي الأمريكى تيرنس راتنجان - ظلاما كثيرا ولهذا فهو يرحب بكل شمعة ولو كانت صغيرة تبدد بعض ظلامه، وهذه التطورات السعيدة في حياتكما هي شمعة صغيرة جديدة تصحح عن الحياة بعض أخطائها وتزيل بعض ظلامها.

ولقد تأملت قصتكما مليا فلم أجد لها عنوانا أبلغ من هذا العنوان «حصاد الصبر»! أي جوائزه التى يعد الله سبحانه وتعالى بها الصابرين في الدنيا والآخرة ويبشرهم بالفوز بها ولقد صبر كل منكما على الامة وأشنانه الشخصية وظروفه الإنسانية وتعلق أمله برحمة ربة في أن يذهب عنه الحزن ويؤنس وحشته ووحدته ويهبه السعادة والأمان فصدقت النية في الطلب. وهيأت الأقدار كلا منكما لأن يكون لرفيقه الأمل.. والعزاء وفدية الأحزان، فروى أرضه العطشى بماء الحب والعطف والحنان وارتوى من نبعه..

فإذا كنت قد وُجِهتَ في البداية بتحفظ الأب وتشككه في نيتك تجاه ابنته فلكم يخطىء الإنسان التقدير في كثير من الأحيان.. ولكم تفسد علينا الظنون والهواجس أحيانا ما كنا جديرين بأن نسعد به وتسكن أرواحنا إليه لو كنا قد غلبنا لدينا الإيمان بخيرية الحياة وحسن الظن بالآخرين على التوجس منهم والتشكك في نياتهم. غير أن فتاتك الطيبة قد حسمت الأمر على أية حال بترجيحها لحسن الظن فيك على سوئه. ولم يخذلها حسها الصادق فيمن توسمت فيه الخير والعطاء والحمد لله. ولكم كان مثيرا للتأمل.. أن تأتي الفرحة الصادقة والابتهاج الغامر بسعادة قلبين جريحين من جانب الجيران والأصدقاء وليس من الأهل وذوي القربى. لكن كل ذلك قد مضى إلى سبيله وأصبح من الذكريات، ولعله قد أصبح أيضا من تحديات السعادة التي تشحذ رغبتكما المشتركة دائما في الحفاظ عليها والدفاع عنها ضد ظنون المستريبين..

والصوفية يقولون لنا في بعض كلامهم الجميل إن المحبة هي الموافقة أي الطاعة له فيما أمر، والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدر. ولقد رضي كل منكما بما قدر له ربه وحكم.. فكان حقا على السماء أن تستجيب لدعائه بأن ينزل إليه ربه من

الخير ما هو فقير إليه.. وهذا الدعاء المفضل لديك بالمناسبة هو من دعاء سيدنا موسى عليه السلام وقد ورد في الآية 24 من سورة القصص، في سياق قصته حين فر من مصر عقب قتله لمن كان يقتتل مع أحد أبناء قومه وتوجهه إلى مدين خائفا يترقب داعيا الله أن يهديه سواء السبيل، فرأى عند ماء مدين زحاما غفيرا وامرأتين تتراجعان عنه يائستين من السقيا، فسقى لهما ثم آوى إلى الظل « فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير » أي أني في حاجة إلى ما تسوقه إلى من خير ورزق فكانت هذه الضراعة بداية لما أنزل الله إليه من خير عميم بدأ بزواجه من إحدى الفتاتين، وتوج بنزول الرسالة عليه في طريق عودته لمصر حين آنس في الطريق نارا ناحية جبل الطور فتوجه إليها ليأتي من عندها بخبر عن الطريق أو جذوة منها يستدفىء بها أهله.. فإذا به يسمع نداء علويا يقول له: إني أنا الله رب العالمين!

فهنيئا لكما ما أنعم به عليكما ربكما من خير عميم.. وبشرى لكما «بإصراركما» المشترك على نيل السعادة والحفاظ عليها وعدم التفريط فيها، ذلك أنه بقوة الرغبة في السعادة وبالفهم الصحيح لحقائق الحياة وما يستحق منها أن يتمسك به الإنسان ويسعى إليه وما لا يستحق ذلك، يكون عمق السعادة والهناء في حياته.. ويكون الأمل والعزاء عن كل الأحزان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكلمات الممرورة!

أنا فتاة في الخامسة والعشرين من عمري علي قدر متوسط من الجمال وقدر كبير من العلم، فأنا خريجة إحدى الكليات المرموقة وأجيد عدة لغات كما أنني متدينة إلى حد كبير وأؤدي كل الفروض الدينية وأرعى الله في تصرفاتي.. وأبي رجل ناجح كل هدفه في الحياة أن يوفر لنا ما نتمناه.. أما أمى فهي سيدة لا توصف بأفضل من أنها أم بكل معنى الكلمة.. وأنا إحدى ابنتين رزق بهما أبواى، فعشنا معا حياة سعيدة كأسرة مترابطة ومتحابة والحمد لله. ولكي أصل معك إلى ما أرغب في استشارتك فيه، فإنه يجب أن أرجع إلى الوراء عشرين سنة.. حيث كانت لي خالة تصغر أمي بعام واحد، وحدث أن تعرضت مع زوجها لحادث سيارة أليم أودى بحياتهما معا ولم ينج من الحادث المؤلم سوى طفلهما الوحيد وكان في الثالثة من عمره في ذلك الوقت ولما كان أبي يرغب بشدة في أن يكون له ولد بعد أن رزق بابنتين، فلقد أصر على أن ينتقل هذا الطفل البريء للعيش معنا وأصبح منذ ذلك الحين أخا لنا، وأصبحنا نحن الثلاثة سواسية بالنسبة لأبي وأمي، واعتدت أن أسمع أمي تشير إليه في حديثها معي أو مع شقيقتي بكلمة « أخوك » فإذا أرادت أن تنبهه إلى موعد المذاكرة طلبت مني أن أبلغ « أخي » بضرورة أداء الواجب المدرسي واستذكار الدروس، وإذا مرض قالت لي: أعطى أخاك الدواء في موعده.. فلم نشعر في يوم من الأيام بأي فارق بيننا وبينه، وأحببناه كما تحب الأخت أخاها وأحبنا هو حبا عميقا وصامتا في أغلب الأحيان لأنه قليل الكلام. ومرت بنا السنون وبلغنا سن الشباب وفهم الأطفال السابقون حقائق الحياة، فلاحظت أن مشاعر الأخوة التي يحملها لي « أخي » هذا قد بدأت تتحول لديه إلى إعجاب مكتوم بي، وأدركت ما طرأ على مشاعره من تطورات بالنسبة لي، لكني لم أعطه أية إشارة إلى فهمى لذلك، إلى أن جاء اليوم الذي استجمع فيه كل شجاعته وصارحني بما خشيت دوما أن يصارحني به، ووجدت نفسي أهرب من المواجهة وأقول له على الفور أنه أصغر مني بعامين، لكن ذلك لم يكن يعنيه في كثير أو قليل، وظل على حبه لى يظهره لى تارة، ويكتمه في صدره تارة أخرى، وظللت أنا على موقفي منه وهو أن ما يجمعني به هو مشاعر الإخوة وحدها، بالرغم من حبي لصحبته وجلسته وضحكته واهتمامي بكل شئونه ومضت فترة ظننت خلالها أنه قد برأ من الهوى.. وظننتني أنا قد نسيت ما حدث ورجعنا شقيقين محبين كما كنا دائما.. وتمت خطبتي لشخص يكبرني ببضع سنوات وتجمعنا معا عوامل مشتركة عديدة كالمستوى الاجتماعي والثقافي والمادي فضلا عن مركزه ومستقبله الذي تحلم به أية فتاة. وأقمنا حفلا كبيرا للخطبة في مكان عام ورأيتني في هذا الحفل سعيدة وكل من حولى سعداء مثلي.. حتى أخي هذا رأيته سعيدا بى وهنأني من قلبه وقدم لي هدية ثمينة من نقوده الخاصة لأن له مالا ورثه عن أبويه ويعمل عملا مرموقا. ومضت الأسابيع والشهور بعد الخطبة فوجدتني لا أحس بالاقتراب ممن سوف ارتبط به إلى نهاية العمر بالرغم من حبه لى، واقتناعي العقلي به، وعلى الناحية الأخرى فلقد شعرت بأن حمى هواى قد عاودت «أخي» هذا مرة أخرى. وظهر لي أنها لم تفارقه من الأصل خلال الفترة التي ظننته قد برأ فيها منها، ورأيته يتعذب في صمت..

وتفلت منه الاشارات والكلمات المرورية التي يتحدث فيها عن قدره في الدنيا ونصيبه.. والحرمان ممن يحب القلب، وكيف تطالبه أقداره بأن يسعد لسعادة من يحبه ولو ضحى هو من أجله بسعادته الخ.. ووجدتني أتأثر بهذه الكلمات الحزينة الممرورة.. ولا أبخل عليه في بعض الأحيان ببعض الكلمات أو الهمسات الحميمة وبعد ذلك أشعر بعذاب الضمير وأتساءل أيكون ما فعلته هذا خطأ أو بداية للخطأ.. وأسلم بأنه خطأ، وأعتزم عدم تكراره لكني أجدني بالرغم من ذلك لا يطاوعني قلبي على تركه وحيدا.. وهو الذي لا يتكلم إلا معي ولا يأكل إلا إذا كنت إلى جواره.. ولا يطمئن له جانب إلا إذا رآني في مجال نظره.. إنني أعرف أنه لا مجال للحب لأنه أخي ولأنه يصغرني في السن لكن ما حيلتي في القلب يا سيدى؟!

إنني أصلي وأدعو ربي أن يرفع عنه هذا العناء وأن يلهمني الصواب، ويقول لى عقلي إنني إذا حاولت الاقتراب أكثر من خطيبى فسوف أنجح وأنا أعلم أنك مع العقل دائما وأنك ترجحه عند الاختيار بينه وبين غيره.. و«أخي» هذا في نفس مستوانا العلمي وتربيتنا الأخلاقية فبماذا تنصحني للتعامل الحكيم مع هذا الإنسان الذي هو جزء لا يتجزأ من قلبي؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ومن الذي قال إن أحكام العقل لا بد أن تتعارض دائما مع أحكام القلب؟ إنهما كثيرا ما يتوافقان وتوافقهما من علامات التوفيق الإلهي للموعودين بالسعادة في الأرض، غير أن أحد أسباب الشقاء الإنساني هو أننا قد نضع من أيدينا في بعض الأحيان فرص السعادة الحقيقية التي تتوافق فيها أحكام العقل مع أحكام القلب، لأننا ننكص عن طلبها في الوقت المناسب ونتحمل تبعات ذلك بشجاعة، أو لأننا في أحيان أخرى قد نفضل أن ندور حول رغباتنا بها بدلا من الاعتراف لأنفسنا والمجاهرة بما نرغبه منها ولو تحملنا في سبيل ذلك بعض العناء كضريبة ضرورية لنيل ما نريد، أو لأننا قد نغمغم لأنفسنا بما نرغبه أحيانا ونترقب من الأقدار أن تهبه لنا بغير أن نبدو نحن ساعين إليه أو متلهفين عليه، لأننا نخجل من طلبة أو المجاهرة به.. و «الخياط العظيم لا يقص كثيرا» كما يقول لنا الحكم الصيني القديم لو- تسو. وإنما يمضي إلى هدفه المحدد بلا تردد فلا يقطع إلا ما يتطلبه تحقيق هذا الهدف، أما نحن فإننا «نقص كثيرا» في اتجاهات مختلفة وبعيدة عن الهدف الذي نتمناه صامتين وننتظر من «يرغمنا» على السعادة التي نريدها في أعماقنا.. وما تروينه لي في رسالتك هذه مثال جديد على «القص » بعيدا عن الهدف المنشود، مما لا يثمر دائما سوى ضياع الجهد والوقت الثمين بلا طائل، فأنت تكادين لا تنكرين أن مشاعرك العاطفية تجاه ابن خالتك لم تعد هي نفس المشاعر « الأخوية » السابقة بأي حال من الأحوال ولا تنكرين أنك قد بدأت تتجاوبين معه عاطفيا وتشعرين بأنه كما تقولين « جزء لا يتجزأ من قلبك » وتؤكدين أنك لا تستطيعين تركه وحيدًا، لكن من ناحية ثانية ترجعين إلى « القص » في الاتجاه البحث عن الهدف وتقولين إنه لا مجال للحب بينكما لأنه « أخوكِ»، ولأنه يصغرك في السن!!

والحقيقة التي ينبغي لك أن تعترفي بها لنفسك وتتحملى تبعاتها بشجاعة أدبية هو أن ما يربطك بهذا الشاب الآن لا علاقة له بالمشاعر «الأخوية» ولا بما يربط الأخ بأخته.. غير أنك تخجلين من الأقرار بذاك لأن تجاوبك العاطفي معه لم يبدأ للأسف إلا بعد أن ارتبطت بغيره وتمت خطبتك له، وإلا بعد أن أقدم لك فرصة اختبار المشاعر والمقارنة بين ما تشعرين به تجاهه.. وما لم تشعري بمثله تجاه خطيبك، وبالتالي فإن الإقرار بالحقيقة سوف تكون له تداعيات غير هينة على المستوى العائلي والاجتماعي، منها ما سوف تشعرين به من حرج تجاه هذا الخطيب الذي لم يرغمك أحد على القبول به، وتجاه أبويك اللذين لم يفرضاه عليك، وما يترتب على كل ذلك من أعباء فسخ الخطبة وتحمل اللوم العائلي من أسرة الخطيب وأسرتك على السواء.. وليس حديثك عن اختيار العقل الذي يتعارض مع اختيار القلب سوى ضرب آخر من خداع النفس، لأن فتاك لا يصغرك في السن سوى بعامين فقط لا غير في السن وهما فارق هيّن يمكن احتماله ولا يؤثر جدا على نجاح العلاقة الزوجية إذا استقرت سفينتك في مرفئه.. كما أنه يماثلك في المستوى العائلي والاجتماعي والعلمي، ويفضل غيره بما ينطوي عليه لك من مشاعر أصيلة عميقة لا يبدو معها في الأفق القريب أي احتمال لأن تتحول عنك أو تسلم باليأس منك.. كما أن علاقتك العائلية به أبدية، ولسوف يظل موجودا بشكل أو بآخر في أفق حياتك العائلية إذا تزوجت غيره.. وقد ينذر ذلك بتحول المشاعر المكتومة الآن إلى علنية غدا، وقد يرشحك هذا للضعف العاطفي معه في المستقبل، ويورثك الندم على أنكِ لم تتحملي العاصفة مبكرا وتصححي مسار حياتك من قبل البداية، فلماذا كل هذا العناء وتصحيح الأخطاء في بدايتها أيسر كثيرا من محاولة تصحيحها بعد الزواج والانجاب؟!

إن حياتك الآن من صنع يديك وعقلك وأفكارك.. وتستطيعين أن تحسني الاختيار لها، أو العكس، ولست بناصحك بأن تتسرعي بفسخ خطبتك الحالية ومواجهة العاصفة العائلية التي لا مفر منها، وإنما سأنصحك فقط بأن تواجهى نفسك مواجهة صريحة وحاسمة، وأن تجرى معها حوارا عقلانيا هادئا تحددي بعده حقيقة مشاعرك تجاه هذا الشاب المتيم بك، وحقيقة رغباتك بشأن حياتك، فإذا أسفرت المواجهة عن رغبتك في استكمال المشوار مع خطيبك ومحاولة بعث شرارة العاطفة في قلبك تجاهه، فعليك أن تتوجهى بجماع نفسك إلى هذه المحاولة وأن تكفي عن كل ما يشرد بك بعيدا عنها أو يشوش عليها من قبيل الكلمات والهمسات الحميمة مع ابن خالتك وقضاء الأوقات الطويلة معه.. والتغلغل في تفاصيل حياته وشئونه.. إلخ.. أما إذا أسفرت عن الاعتراف لنفسك بأنك تبادلين هذا الشاب مشاعره.. ويصعب عليك الافتراق عنه، فلابد أيضا من أن تمضي في الطريق الذي يجمع بينك وبينه بالرباط المقدس وأن تتحملى تبعات هذا الاختيار بشجاعة وتدفعي ضريبته راضية.. فذلك أكرم وأفضل لك من التمزق العاطفي بين خطيبك وبين هذا الشاب الذي يبدو أنه قدرته في الحياة كما أنك أنت بالمثل قدره، وهو أيضا أكرم وأفضل لخطيبك من أن ترتبطى به ومشاعرك العاطفية تتجه إلى غيره مما قد يرشحك للخطأ معه في المستقبل.

لقد كان الأديب الفرنسي بلزاك يقول إن ميلاد الحب كولادة طفل.. عسير لكنه بهيج!

فلتكن إذن العاصفة العائلية الناجمة عن فسخ الخطبة إذا استقر اختيارك على ابن خالتك، هي آلام هذه الولادة.. ولتكن بهجتها هي العزاء لك عنها.. وفي كل الأحوال فإني لا أنصحك أبدا بالارتباط بشاب ما مهما تكن ميزاته.. ورضاء العقل عنه، ومشاعرك العاطفية أسيرة لدى شاب آخر لا يعترض عليه العقل كذلك، وتتوافر فيه أيضا كل المزايا ولا يعيبه «ظاهريا» في نظرك سوى أنه يصغرك بعامين.. وإنك تخجلين من الاعتراف لنفسك بحبه بعد أن رفضتِهِ من قبل وارتبطتِ بغيره وعلم الجميع بهذا الارتباط المعلن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضوء الوحيد!

أنا من قراء هذا الباب وأستعين بما أتعلمه منه على مواجهة الظروف الصعبة التي حلت بي.. ولقد فكرت في أن أكتب لك عن مشكلتي لكني شعرت بالخجل لتضاؤلها بالقياس إلى ما سوف أرويه لك عن هذه السيدة التي أعتز كثيرا بأنها جدة طفلتي وأم زوجتي..

فأما هذه السيدة فلقد بدأت قصتها مع الحياة حين تزوجت في سن مبكرة قبل أن تكمل دراستها الثانوية من ابن خالتها الضابط الشاب بالقوات المسلحة. وسعدت بحياتها معه وأنجبت منه ابنتها الكبرى وبعدها بعامين انجبت بنتين توءما، ثم بعد عامين آخرين رزقت بولد، فكان الفرحة الكبرى لأبيه وأمه. واكتملت سعادة الأسرة وواصلت حياتها الآمنة المطمئنة، وتنقلت من مدينة إلى مدينة تبعا لظروف عمل الزوج، ثم شاءت الأقدار أن يصاب الولد الوحيد لهذه الأسرة بالصفراء في فترة إقامة الأسرة بمطروح نتيجة لحقنة غير معقمة، فإذا بهذا الطفل الذي تنعقد عليه آمال الأسرة تتدهور صحته بسرعة رهيبة، وإذا به يرحل عن الحياة وهو في السابعة من عمره، ويحزن الأب والأم على وحيدهما حزنا عميقا لكنهما سرعان ما يتماسكان بعد فترة من الحزن الشديد.. ويقنع كل منهما الآخر بأن الحياة لابد أن تستمر لأن لديهما ثلاث بنات يحتجن إلى أبويهن فيستعيدان توازنهما ويواصلان الحياة، وبعد عدة سنوات أخرى يلاحظ الأبوان أن صحة بنتيهما التوءم ليست دائما على ما يرام. فهما تشعران بالإرهاق لأقل مجهود تبذلانه، ولا تستطيعان مجاراة زميلاتهما من البنات في اللعب ويشعر الأبوان بالقلق عليهما فيصطحبانهما للطبيب، وبعد الفحص الدقيق يتضح أنهما تعانيان من عيب خلقي في القلب ويخضع الأبوان بدورهما للفحص فيتضح أن هذا العيب قد انتقل إليهما وراثيا عن طريق الأب، لكن اصابة الأب لا تمثل بالنسبة له أية خطورة من الناحية الطبية، وتبدأ الأسرة رحلة معاناة جديدة بين الأطباء والمستشفيات، وتتدهور صحة البنتين بسرعة عجيبة، وينتهي بهما المطاف إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادي تحت العلاج، فلا يطول الوقت حتى تستسلم إحداهما للمصير المحتوم، وتلبي نداء ربها ويفجع الأبوان في زهرتهما التي لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، ويغادر الأب المستشفى ليقوم لابنته بالمراسم الحزينة، ويرجع إلى المستشفى ليتابع حالة الأخرى، فلا يكاد يصل إليه حتى يتلقى خبر رحيلها عن الحياة بعد شقيقتها بساعات! ويسقط الأب المكلوم مريضا ويتم إدخاله العناية المركزة بنفس المستشفى وتصاب الأم بصدمة عصبية شديدة، وتخضع للعلاج ويصدر القرار بعلاجهما في لندن على نفقة القوات المسلحة، وبعد رحلة علاج ليست طويلة يرجعان إلى الحياة مرة أخرى.. ويتساند كل منهما على الآخر، ويركزان كل حبهما وعطفهما وحنانهما على الابنة الكبرى التي أصبحت الضوء الوحيد في حياتهما. وكانت هذه الابنة قد استوت في ذلك الوقت شابة جميلة وحزينة وقد أوشكت على إنهاء دراستها الجامعية وأدت امتحان الليسانس وراحت تنتظر نتيجته وفي هذه المرحلة من حياتها التقيت بها أنا لأول مرة على الشاطئ في مطروح حيث اعتادت أسرتها أن تقضي بعض

أيام الصيف، وكنت أعرف من بعض الأهل والأقارب قصتها وما شهدته حياتها من أحزان ومآس فأحببتها حبا عظيما وأحبتني هي أيضا بكل ما في أعماق قلبها من قدرة على الحب ولأن والدها صديق لوالدي اللواء السابق بالقوات المسلحة أيضا فقد صارحت أسرتي على الفور برغبتي في الزواج منها وأبدت أسرتي بعض التخوف من حكاية المرض الوراثي، لكنهم إزاء حبي لهذه الفتاة لم يترددوا في مباركة زواجي منها..

وتقدمت لوالد فتاتى طالبا يدها منه فرحب بي، أما والدتها فلقد كانت فرحتها بسعادة ابنتها الوحيدة لا توصف وساعدتني أسرتي على إتمام الزواج، ويسرت لى كل الصعوبات وأحب أهلي عروسى الشابة حبا شديدا. وتزوجنا وهي زهرة متفتحة في عامها الرابع والعشرين من عمرها. وأنا في الخامسة والعشرين من عمري وبدأنا حياتنا الزوجية معا، ونهلت من نبع الحب والسعادة مع زوجتي هذه ووجدت فيها إنسانة جميلة الروح طيبة القلب عطشي للسعادة والرغبة في الإحساس بالأمان، ولأنني قد تزوجت صغيرا فلقد سعيت إلى تحقيق مستوى أفضل من الحياة وسافرت للعمل بإحدى شركات البترول بدولة عربية، ولحقت بى زوجتي بعد فترة قصيرة، وابتعدت لأول مرة عن أبويها فكان وقع الفراق عليهما وعليها شديدا لكن الحياة مضت بنا، وبعد شهور حملت زوجتي وبدأنا المتابعة الطبية لحملها، فلاحظت الطبيبة أن ضربات قلبها ليست منتظمة. وبعد الفحص بالموجات فوق الصوتية واستشارة أخصائي القلب أبلغنا الطبيب بأنها تعاني من تضخم بسيط في إحدى حجرات القلب وأن الحالة لا تدعو للقلق ويمكن للحمل أن يستمر ولكن بشرط المتابعة الطبية المنتظمة. وفوجئت بأن زوجتي كانت تعرف عن نفسها هذه الحالة منذ توفيت شقيقتها التوءم حيث شمل الفحص الطبي وقتها كل أفراد الأسرة، ولم أشعر تجاه زوجتي بأي لوم لأنها لم تخبرني بذلك من قبل فلقد كنت أعرف مأساة شقيقتيها وظروف أسرتها وأدركت الظروف النفسية التي عاشتها.

ومضت شهور الحمل طبيعية ورزقنا الله بطفلة جميلة وبعد عامين آخرين أصرت زوجتي على الحمل مرة ثانية واستشرنا طبيب القلب في ذلك فأكد لنا أنه لا خطورة على الإطلاق من الحمل مرة ثانية وحملت زوجتي وأنجبنا طفلة ثانية وحرصت زوجتي طوال سنوات غربتها على أن ترجع إلى مصر مع طفلتينا كل فترة من الزمن لقضاء بعض الوقت مع والديها ورغم افتقادي الشديد لها وللطفلتين خلال غيابهن إلا أنني لم أعترض مرة واحدة على رغبتها في العودة لزيارة أبويها، ذلك أن وجود الطفلتين مع جدتهما وجدهما قد أصبح المعنى الوحيد الباقي لهما في الحياة، ولقد أحبا الطفلتين حبا غامرا وسعدا بهما سعادة طاغية حتى خيل إلى أن الحياة قد ابتسمت لهما أخيرا بعد طول تجهم.

وذات يوم وزوجتي في مصر عرفت أنها مريضة فتوجهت إليها على الفور.. ووجدتها تتابع علاجها مع بعض الأطباء.. لكن العلاج لا يحقق أي تقدم، فقررت أن أرجع بها إلى مقر عملى لعلاجها في مستشفيي الشركة العالمية التي أعمل بها، وتم عرضها على أطبائه فشخصوا الحالة بأنها حالة التهاب مزمن في أنسجة الجسم وحاولوا قدر جهدهم علاجها، وأجروا عدة اتصالات مع المراكز المتخصصة في

أمريكا وانجلترا بحثا عن علاج لهذه الحالة النادرة دون جدوى.. وواصلت صحة زوجتي تدهورها.. حتى بدأت نذر النهاية الأليمة تلوح في الأفق وحين أدركت ذلك قررت العودة مع زوجتي إلى مصر.. وتم إدخالها مستشفى عين شمس التخصصي.. وبعد 5 أيام فقط من عودتنا إلى بلادنا لبت زوجتي نداء السماء.. وانتقلت إلى رحاب ربها.

وبالرغم من ذهولي وأحزاني وحسرتي على زوجتي وطفلتي.. فلقد شغلت بعض الشيء عن كل ذلك، بما حدث لصهري وزوجته فلقد كانت الصدمة الرابعة في حياتهما مروعة ومزلزلة لكل ما بقي من تماسكهما وصلابتهما.. وشهدت صهرى الرجل الطيب وهو يشتكى مذبوحا من الألم من أقداره ويتساءل دون جدوى: لماذا وأنا الرجل الصائم المصلى المزكي الحاج لبيت ربه لماذا؟ لماذا؟! أما الأم الثكلى فلا أستطيع مهما حاولت أن أصف لك حالتها وهي تشهد هذا الضوء الوحيد الباقي في حياتها يذوى.. ويخفت إلى الأبد.. غير أنهما.. ويا للعجب لصمودهما وقوة إيمانهما بربهما سرعان ما تماسكا واستعادا اتزانهما مرة أخرى وكأنما قد تحصنا ضد الصدمات ومفاجآت القدر، ثم طلبا مني شيئا واحدا هو أن أترك ابنتيّ لديهما حين أرجع إلى غربتى ورجتني الأم المكلومة ألا أرفض ذلك وكيف أرفض يا سيدى رجاء هذه السيدة وهذا الأب وطفلتاى هما تعويض الأقدار الوحيد لهما الآن؟

لقد قبلت الرجاء وتركت الطفلتين في رعاية جديهما ورجعت إلى مقر عملي وأحزاني وأوجاعي وهما الآن يعتنيان بهم أشد العناية.. وقد أوقفا كل مظاهر الحزن والحداد في حياتهما من أجل الصغيرتين اللتين لا ذنب لهما في هذه الأقدار المأساوية وأنني أكتب لك هذه الرسالة لكى توجه كلمة من كلماتك الحانية لهذه السيدة وهذا الرجل عسى أن تكون منديلا يجففان به دمعهما، وهما لا يعرفان بأمر هذه الرسالة.. لكني أرجو أن يكون في كلماتك بعض السلوي وبعض العزاء لهما، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

اتساع المأساة قد يجمد الدمع في العين أحيانا ليس زهدا في الحزن أو تعففا عنه وإنما عجزا عن الوفاء بحق هذا الحزن الكبير من المشاعر والدموع.

وأحسب أن هذا كان حال هذين الأبوين المكلومين حين انطفأ الضوء الوحيد في ظلام أحزانهما الطويلة برحيل زوجتك عن الحياة يرحمها الله، والحق أني لا أدري ماذا أقول لهما.. واحزانهما تجل بحق عن العزاء غير أني استعيد في حديثى إليهما ما قاله ابن السماك معزيا رجلا مصابا ببعض ما أصيبا به في إيجاز بليغ: إن الذي كان لك في الدنيا سرورا قد صار لك في الآخرة أجرا..

وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه معزيا آخر: إن تحزن فقد استحقت ذلك منك الرحم.. وإن تصبر فإن في الله خلفا لك من كل هالك..

وقول ابن عباس لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما معزيا إياه في صغير له: عوضك الله منه ما عوضه الله منك!

والحق أنني لا أملك لهذين الأبوين المكلومين إلا أن أرجو أن يكون «سرورهما في الدنيا» الذي توارى وراء الحجب، هو أعظم الأجر لهما في الآخرة بإذن الله.. وأن يعينهما الله على أقدارهما الحزينة بإيمانهما العميق بربهما.. وبتسليمهما بما جرت عليهما به المقادير وأقول لهما إن الله سبحانه وتعالى الذي يجزى الصابرين بما صبروا قد شاءت رحمته بهما ألا يغيب الضوء الوحيد عن حياتهما بغير أن يخلف مشعلا آخر ينير ظلام الأحزان من حولهما ويجدد رغبتهما في الحياة.. ويجعل لهما هدفا يعيشان من أجله فأهداهما هاتين الحفيدتين لكي يمتد بهما وجود الابنة الراحلة في حياتهما..

وقديما قال أبو العتاهية متعزيا:

إلا إن ريب الدهر يدني ويبعد

وللدهر أيام تُذم وتُحمد

أقول لريب الدهر إن ذهبت يد

فقد بقيت والحمد لله لى يد

واليد التي بقيت في حياة هذين الأبوين هما طفلتاك الجميلتان اللتان وافقت أنت - فضلا منك ورحمة - على أن تبقيا في حضانة جديهما وتؤنسا وحدتهما وتشغلاهما عن بعض أحزانهما بشئونهما الصغيرة ومتطلبات رعايتهما وتبني آمالهما وأحلامهما في الحياة والمستقبل.. وفي ذلك بعض العزاء.

والشكر لك في النهاية أن تفهمت عمق احتياج صهريك النفسي إلى وجود هاتين الطفلتين في حياتهما والعزاء كل العزاء لهذين الأبوين الصابرين الصامدين لأعاصير الحياة وشدائدها على إيمانهما بربهما.. وصبرهما على مكاره الأيام، فنعم عقبى الدار.. نعم عقبى الدار.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بطاقات الدعوة!

أقرأ بريد الجمعة منذ فترة طويلة.. وألاحظ في كثير من ردودك أنك تحاول جاهدا التخفيف عن بعض قرائك الذين يشكون لك ضياع بعض فرص الحياة منهم بعد أن تطلّعوا إليها بشدة، وانعقدت آمالهم عليها طويلا، فتنصحهم بعدم التوقف أمام ما لم تسمح لهم به الحياة، وبالتطلع إلى التعويض الإلهي لهم عن كل ما فاتهم من أسباب السعادة، مؤكدا لهم أنه سوف يجيء إليهم حين تأذن بذلك السماء.. وأود أن أروي لك قصتي لعلك تجد فيها ما يفيد غيري من القراء..

فأنا شاب في منتصف الثلاثينات من عمري، أقيم في مدينة ساحلية، وقد تطلعت منذ بضع سنوات إلى الارتباط بشريكة الحياة، فتقدمت لابنة رجل فاضل طالبا يدها.. ورحبت الأسرتان بهذا الارتباط.. وغمرتني أسرة الفتاة بحبها واهتمامها، وأحببت فتاتى باحترام كامل وأحببت كل أفراد أسرتها.. وتبادلت الأسرتان الزيارات في جو من الود والابتهاج، وتم الاتفاق على كل التفاصيل.. وتحدد موعد الخطبة المباركة واشتريت الشبكة التي سأقدمها لعروسى وطبعت بطاقات الدعوة وتم توزيعها على أفراد الأسرتين والأهل والأقارب، وقمت بتعليق إحدى هذه البطاقات على مدخل المكان الذي ستتم فيه الخطبة، وتم إعداد كل المستلزمات للحفل البهيج واشترت فتاتي فستان الشبكة الجميل، واستغرقت أنا في الأحلام الوردية الجميلة أتخيل فتاتي وأنا أضع في أصبعها دبلة الخطبة وأمي تترقرق عيناها بدموع الفرح، ووالدتها مبتهجة والاخوة من حولنا سعداء.. وتسلمت «البدلة التي سأرتديها في حفل الخطبة وأعددت القميص وربطة العنق والجورب والحذاء اللامع، ولم يتبق سوى يومين فقط على الحدث السعيد، فإذا بوالد فتاتي يتصل بأسرتي ويعتذر لها فجأة عن عدم إتمام الخطبة بدون أية أسباب واضحة سوى هذه العبارة المبهمة «ليس هناك نصيب»!

وحاولت مع والد فتاتي بكل السبل أن أعرف منه سببا محددا للرفض المفاجيء فلم أنجح في ذلك.. وتخيلت حرجي الشديد مع الأهل والأصدقاء الذين دعوتهم لحضور الخطبة.. وكيف سأبرر لهم إلغاءها، فتوسلت لوالد فتاتي أن يحفظ على كرامتي وأن يقبل بإتمام الخطبة في أضيق الحدود حتى ولو كانت النية قد انعقدت لديه على رفض ارتباطى بابنته ثم بعد فترة قصيرة يقوم هو بفسخها بأي مبرر لا يسيء إلى ولا إلى الفتاة، كالزعم مثلا بأننا قد اختلفنا حول بعض الماديات أو حول مقر اقامتنا بعد الزواج خاصة أن أسرة فتاتي تقيم بالقاهرة وأسرتي تقيم بالمدينة الساحلية، وحاول الأب فيما علمت إشفاقا منه على موقفي أن يفعل ذلك لكن ابنته رفضت ذلك رفضا باتا، وأصرت على عدم إتمام الخطبة بأي شكل من الأشكال رغم توسل الجميع لها بالعدول عن موقفها، ورغم رجائهم لها بالقبول حرصا على كرامة شاب لم يسيء إليها في شيء.. وسلمت أمري لله.. وألغيت حجز المكان المقرر لإقامة حفل الخطبة.. واعتذرت على استحياء لمن سبق لي أن دعوتهم من الأصدقاء والزملاء إلى الحفل وتولت أسرتي الاعتذار عنى للأهل والأقرباء.. وكان موقفا عصيبا لا أتمناه لأي إنسان في الوجود.. وشعرت أنا بطعنة دامية في قلبي

وكرامتي.. وتساءلت متألما عما دعا فتاتي وأسرتها للقبول بى ثم إلى رفضي بهذه الطريقة المهينة، وماذا أخطأت فيه.. وماذا جنيته حتى أتعرض لهذه المحنة؟ ثم علمت من بعض الأهل أن فتاتى ووالدها قد علما بأني مصاب بأحد الأمراض الخلقية التي تلازم المرء طوال حياته، لكنها لا تضره ولا تؤذيه ما دام يعيش حياته، محافظا على نفسه من أية مخاطرة قد تؤدي إلى جرحه، وتعجبت لما سمعت وقد صارحت فتاتي في بداية تعارفنا بكل ذلك وأطلعت أسرتها على نتائج التحاليل الخاصة بى، واتصلت الأسرة بطبيب المعالج فطمأنهم على حالتي، وأكد لهم أنه لا خوف من إتمام الزواج وأن الحالة التي أعانيها ليست مخيفة ولا تتطلب مني سوى الاحتراس فقط، وأنه حتى لو استدعى الأمر إجراء جراحة ذات يوم فالعلاج معروف والشفاء مضمون بإذن الله.. وما أكثر ما يتزوج أمثالي كل يوم وينجبون ويعيشون حياتهم في سعادة وأمان.

وانطويت على أحزاني.. وواصلت حياتي محاولا نسيان ما حدث.. واعتزمت ألا أعرض نفسي لهذه التجربة القاسية مرة أخرى، غير أن الأيام مضت بخيرها وشرها.. وراح الأهل يلحون عليّ من جديد بالبحث عن شريكة الحياة.. فتقدمت لفتاة أخرى حاملا معي تقارير الطبية وقبل أن أطلب يدها أطلعتها على حالتي، وطلبت منها أن تسأل كبار الأخصائيين عن هذه الحالة قبل أن تجيبني بالرفض أو القبول، وتركت التقارير لديها راجيا فقط استعادتها في الحالتين، وأمضيت فترة الانتظار مترقبا ومؤملا في رحمة الله سبحانه وتعالى ألا تتخلى عنى هذه المرة، وبعد أيام فوجئت بمن يدعوني لزيارة الأسرة والتقدم رسميا لطلب يد ابنتها، لأن الأسرة قد استشارت كبار الأخصائيين بالفعل فأكدوا لها صلاحيتي للزواج بلا مخاطر.. وسعدت بذلك سعادة كبيرة واعتبرته تعويض السماء لى عما تجرعته من آلام سابقة بلا ذنب جنيته.. وأقيم حفل الخطبة في موعده هذه المرة بلا مفاجأت ولا أحزان، وأثبتت لي تجربة الأيام أن السماء قد اختارت لي هذه الفتاة لكي تعوضني عن كل ما تألمت له من قبل وأنها «السعادة المدخرة» التي تقول أنت في بعض ردودك أن السماء قد تحتفظ بها في علم الغيب لكي تهبها لمن يستحقها في الوقت المناسب.

وتزوجنا وسعدنا بحياتنا معا، وازداد ارتباطنا وعمق تفاهمنا على مر الأيام وبعد عام من الزواج وهبنا الله طفلا جميلا ملأ حياتنا بهجة وسرورا..

أما فتاتي الأولى فلقد مضت في طريق آخر وتزوجت غير أني قد علمت أنه لم يستقر لها حمل منذ زواجها بالرغم من تكراره والتزامها الراحة التامة في الفراش في كل مرة ولم أسعد بذلك ولم أفرح له، كما قد يتصور أحد إذ ماذا يفيدني ذلك وقد افترقت بنا الطرق وسار كل منا في اتجاه مختلف، غير أني أتساءل بالرغم من كل ذلك هل ما تعرضت له فتاتي السابقة هو عدالة السماء.. أو انتقامها منها لخذلانها لشاب تقدم إليها طالبا السعادة معها ولم يخف عنها من أمره شيئا؟

إن حزن هذه السيدة لن يسعدني.. وليس لي فيه يد ولعلها لو اتجهت إلى الله سبحانه وتعالى بنفس راضية أن يغفر لها ما فعلته بى فقد يغفر لها ويرزقها النسل الصالح..

وكل ما أرجوه هو ألا تسيء الظن بي وتتوهم أني شامت فيها.. بعد ما كان من أمرها.. والسلام..

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

الخطأ الحقيقي في قصتك مع فتاتك السابقة هذه، ليس في تراجعها عن إتمام مشروع الارتباط بك لأسباب رأتها حتى ولو اختلفنا معها فيها، وإنما في توقيت إعلانها لك هذا الانسحاب المباغت قبل يومين فقط من حفل الخطبة وبعد إتمام كل الاستعدادات لها وتوزيع بطاقات الدعوة لحضورها فالتعارف العائلي بهدف الارتباط هو في النهاية مشروع اتفاق قابل للاستكمال والمضي به إلى غايته، وقابل أيضا للرجوع عنه من جانب أحد الطرفين أو كليهما لأية أسباب يقدرانها، ولقد شرعت الخطبة أصلا لكي تكون فترة للتعارف الحميم واختبار المشاعر.. وامتحان كل طرف لرغبته في الآخر، فإذا جاءت مؤشراتها إيجابية مضى في مشروع الارتباط إلى نهايته وإذا لم يحدث ذلك اعتذر عن عدم اتمامه، وبحث عن غايته في طريق آخر، وليس يضير أحدا أن يفشل مشروع خطبته لأحد إذا روعي في ذلك الالتزام بالأعراف السائدة واحترام المشاعر والكرامات.. ولهذا فإننا لا نلوم أحدا لمجرد أنه قد فسخ ارتباطه بآخر لأسباب رآها.. حتى ولو لم تكن عادلة أو مقنعة للآخرين، لأن كل إنسان أدرى بما يحتاج إليه ولأن من لا يصلح لإنسان قد يصلح لغيره.. لكننا نلوم فقط من لا يراعي اعتبارات الآخرين وكرامتهم ومشاعرهم عند اتخاذ مثل هذا القرار وخطأ فتاتك السابقة الحقيقي يتمثل في ترددها في اتخاذ القرار بالقبول بحالتك الصحية التي لا خطر فيها عليك بشرط الاحتراس والالتزام، أو بالاعتراف بعدم رغبتها أو قدرتها على المخاطرة ومعايشة التجربة بجوانبها المختلفة، والواضح هو أنها قد ترددت بين القبول والرفض غير المعلن طويلا حتى إذا ما اقترب موعد إعلان الخطبة وأوشك الأمر أن يخرج إلى العلن.. انتصرت لديها نوازع النفس التي ترجو لصاحبها الأفضل والارفع دائما من كل الأشياء.. وتشفق عليه من القبول بأية مخاطرة ولو كانت هينة فباغتت الجميع بتراجعها عن الخطبة وتصرفت في ذلك وفقا لما يتفق مع اعتباراتها الذاتية وحدها، وبغير أن تضع في حسابها أثر هذا القرار المباغت على الطرف الآخر في الارتباط أو على مشاعره وكرامته الشخصية ومشاعر أسرته وكرامتها..

والفضلاء من الناس هم من لا يتخذون قراراتهم واختياراتهم وفقا لاعتباراتهم الشخصية وحدها، بغض النظر عن انعكاساتها على مصالح الآخرين ومشاعرهم وكرامتهم، وإنما يحاولون دائما أن يضعوا اعتبارات الآخرين في حساباتهم وان يخففوا بقدر الامكان من تعارض رغباتهم ومصالحهم مع رغبات الآخرين ومصالحهم، وقد يضحون في سبيل تجنب إيلام الآخرين والتخفيف عنهم بتحمل بعض العناء.. ولا عجب في ذلك لأن الحياة لا تستقيم إذا انطلق فيها البشر كالوحوش الضارية يسعون وراء أهدافهم ورغباتهم وحدها بلا قيود ولا حدود وبشير أن يضعوا في حسابهم حقوق الآخرين ومشاعرهم واعتباراتهم وكل ما

تعرضت له من الام وجرح المشاعر والكرامة لم ينجم عن رفض هذه الفتاة للارتباط بك تخوفا من حالتك الصحية.. ولو كانت قد فعلت ذلك بشكل كريم خلال فترة التعارف الأولى لما لأمها أحد على اختيارها، وإنما نجم أساسا عن أنها قد ضحت بكل ما تمثله لك ولأسرتك هذه الخطبة من اعتبارات بعد إعلانها للآخرين، وجابهتكم جميعا بالخذلان بعد أن عرف الجميع موعدها. ولقد كانت تستطيع أن تخفف كثيرا من وقع الصدمة عليك لو كانت قد قبلت بإتمام الخطبة شكليا، ثم فسخها في هدوء بعد حين، لكنها آثرت ألا تضحى بشىء من نفسها لإصلاح خطأ ارتكبته حين ترددت طويلا قبل حسم اختيارها.. فإذا كان لا يسعد أية فتاة بالفعل أن تكون لها سابقة خطبة فاشلة حتى ولو كانت هي التي رغبت في إنهائها، وإذا لم يكن من اليسير بالفعل على أية فتاة أن تجابه الجميع في حفل عام لخطبتها وهي تضمر في نفسها فسخها بعد أيام أو أسابيع.. فلقد كان من واجب هذه الفتاة أن تضحي من نفسها بعض الشيء بقبول هذا العناء إبراء لذمتها تجاه الشاب الذي لم يخطىء في حقها، ولم يرتكب إثما حين طلب السعادة معها بالطريق المشروع.. ولا ذنب له في حالته الصحية التي أثارت هواجسها.. وبالرغم من ذلك فلست أرى لك وقد عوض الله عنها خيرا وسعدت بحياتك الجديدة وانجبت طفلا جميلا.. وأثبتت الأيام أن حالتك الصحية لا تحول بينك وبين السعادة والأمان، لست أرى لك أن تظل منشغل الخاطر بمن رفضتك من قبل وآلمتك حتى ولو كان هذا الانشغال بعقد المقارنة بين توفيق الله سبحانه وتعالى لك في حياتك الشخصية، وتعثر حظ فتاتك السابقة، مع الحمل والانجاب.. ذلك أنه حتى المقارنة ليست من حسن شكر الإنسان لربه على ما أنعم به عليه من نعم جليلة، لأنها لا تفيد الشكر وحده.. ولا الإشفاق على الغير وحده.. وإنما تفيد أيضا - ولو بطريقة لا شعورية - شبهة الشماتة والتشفي في حظوظ من ظلمونا وجرحوا مشاعرنا وآثروا غيرنا علينا..

ولو لم تكن تفيد ذلك لما ذكرناها في موضع ذكر اساءات من أساءوا الينا، ولأكتفينا بالشكر على النعم.. ورجونا للآخرين مثل ما نعمنا به، فالصفح الحقيقي هو النسيان التام ومرور الأعوام علينا بغير أن نتذكر من أساءوا الينا أو ننشغل بتتبع حظوظهم في الحياة.. والشماتة فيهم أو الرثاء لهم.. لأنه حتى هذا الرثاء لا يخلو من شبهة الاعتداد بحظوظنا بالمقارنة بحظوظهم في الحياة، اللهم إلا إذا كان خالصا لوجه الله.. وكل ذلك ليس من الصحة النفسية ولا من السلام النفسي في شيء.. فلا تسمح لهذه المشاعر السلبية بأن تفسد عليك صفاء نفسك وحسن شكرك لربك على تعويضه العادل لك عما تعرضت له من قبل ودافع عن سعادتك بتطهير النفس من كل الشوائب عسى أن يكون ذلك هو شفيعك عند ربك أن يحفظ عليك نعمه ويجزل لك منها العطاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البيت الجديد!

أنا شاب من أبناء الجنوب شاءت لي الأقدار أن أكون طرفا في قصة من هذه القصص المؤلمة التي أحرص على قراءتها في بابك بانتظام.

فلقد نشأت في أسرة صعيدية مترابطة. وتزوج شقيقي الأكبر منذ بضع سنوات، وأقام مع أبي وأمي في البيت الكبير كما نسميه أي بيت الأسرة.. وتزوجت شقيقاتي واستقرت بهن الحياة في بيوت أزواجهن في الجوار القريب، وأنجب شقيقي الأكبر من زوجته طفلين صغيرين، وسعد بحياته وزوجته وسعدت هي به.. ثم فجأة تزلزل كيان هذا البيت بمصرع شقيقي هذا منذ عام ونصف عام في حادث سيارة خلال عودته من مدينة الأقصر التي كان يعمل بها. وخيم الحزن على الجميع وسقطت زوجة أخي في غيبوبة شبه متصلة.. ووفقا للتقاليد فقد استمرت زوجة أخي مقيمة في بيت الأسرة مع طفليها الذي يبلغ عمر أكبرهما 6 سنوات والأخرى 4 سنوات، وبعد إحياء ذكرى الأربعين بأيام جاء أهل زوجة أخي ليصطحبوها معهم إلى بيت أسرتهم كالعادة حين يكون الأطفال صغارا. ولا أدري ماذا فعل أبي معهم أو ماذا قال لهم لكى يقنعهم بترك ابنتهم مع طفليها بعض الوقت في بيتنا لكنهم على أية حال قد قبلوا بعد رجاء وإلحاح تركها لبعض الوقت على أن يرجعوا لاصطحابها معهم بعد هذه المهلة الجديدة بلا أي تأجيل.. وبعد انصرافهم فوجئت بأبي يدعوني للحديث معه على انفراد ثم يرجونى والدمع المتجمد في عيونه، بأن أتزوج أرملة شقيقي الراحل لكي تظل هي والطفلان في بيتنا وتمضي الحياة بهم وبنا على ما كانت عليه قبل الحادث المؤلم ولم أجب أبي بالرفض أو القبول عند سماعي هذا الرجاء المؤلم، وغلبني الاحساس بالحزن على أخي الذي كان صديقي وتوءم روحى، فانعقد لساني ولم يضغط على أبي لكي يتعجلني الرد وإنما قال لي إنه يدع لي الأمر للتفكير فيه ويأمل أن أضع مصلحة الطفلين اليتيمين ورغبته ورغبة أمي في ألا يفارقاهما في اعتبارى. ومضت بضعة أيام أخرى وأنا مستغرق في التفكير أريد أن أحقق لأبي وأمي رغبتهما في أن ينشأ أحفادهما في أحضانهما.. وأتخيل من ناحية أخرى نفسي في موضع أخي من زوجته فأخجل من الفكرة وأنزعج لها.. إلى أن كنت جالسا في غرفتي ذات يوم أقرأ الصحف في الصباح فدخلت أرملة أخي إلى الحجرة ورجتني أن أعقد قراني عليها فقط لكيلا تغادر بيت الأسرة، ولأن أهلها إذا أعادوها إلى بيتهم فلسوف يضغطون عليها بشدة للزواج مرة أخرى ولن تمضي ستة أشهر أو عام على أكثر تقدير إلا وتكون قد تزوجت من آخر رغبت في ذلك أم لم ترغب، ولهذا فهي ترجوني أن أعقد قراني عليها « فقط» لكي أحميها من ذلك وأعين طفليها على البقاء بين أهل أبيهما، وعلى ألا يكون لكل منا شأن بالآخر بعد عقد القران لأنها لا تريد الزواج بعد أخي وترغب في أن تتفرغ لتربية طفليها منه!

ولم يكن أمامي من سبيل بعد هذه المصارحة سوى القبول، استجابة لرغبة أبي وأمي.. وجاء أهلها بعد أيام ليصطحبوها معهم، فقال لهم أبي إنه لا داعي لذلك لأن ابنه الآخر سوف يتزوج أرملة أخيه ويربي ابنيه ورحب الأهل بذلك.. وانتظرنا انقضاء فترة العدة.. وما أن انتهت، حتى جاء المأذون وعقد قرانى عليها.. وبعد

القران دخلت هي حجرتها ودخلت حجرتى وفي الصباح غادرت البيت وتوجهت إلى الاسكندرية حيث يقيم بعض أقاربي ويعملون، وقضيت في الثغر تسعة شهور كاملة عملت خلالها مع أقاربي ثم علمت أن أبي مريض فعدت إلى بلدتى لزيارته والاطمئنان على أحواله وأحوال أمي، واستقبلتني «زوجتي» بالمصافحة العادية كما كانت تفعل معي وهي زوجة لأخي، وعلمت أن أمي على خلاف معها منذ علمت أن كل ما بيننا هو وثيقة الزواج فقط.. ووجدت العلاقة متأزمة بينهما للغاية فوفرت لزوجتي مسكنا مستقلا قريبا وانتقلنا إليه، وأصبح من واجبي أن أبيت معها في البيت الجديد لكيلا أدعها وأدع طفليها وحدهم فيه، ومضت حياتنا في البيت الجديد هادئة.. فزوجتي تعد الطعام وتغسل الملابس وترعى الأطفال.. وأنا ألبي مطالبها من الخارج وأرعى مصالح البيت وأرعى الابنين اللذين لا يعرفان لهما أبا غيري.. وأؤدي عملي، وفي المساء يدخل كل منا غرفته ويغلق بابها عليه للصباح.

وبعد فترة من الوقت تساءلت عما يدعونا للاستمرار على هذا النحو إذا كانت الحياة قد جمعت بيننا تحت سقف واحد ولكل منا مصلحة أساسية في رعاية هذين الطفلين.. وقررت بعد تردد طويل أن أفاتحها في أن نحول زواجنا الشكلي إلى زواج حقيقى...

وفعلت ذلك ففوجئت بها تبكي بشدة وتقول لي أنها قد اتفقت معي من البداية على هذا الوضع، وبحيث تعيش لطفليها وعلى ذكرى زوجها، وإني استطيع إذا رغبت في الزواج الحقيقي أن أتزوج من غيرها ولن تعترض على ذلك بل إنها تستطيع أن ترجع للإقامة في بيت أبي لكي يخلو لي هذا المسكن لأتزوج فيه!

وشعرت بالخجل والحياء لردها هذا.. ولم أشأ أن أحرجها أو أحرج نفسي أكثر من ذلك فسكت، ومضت بنا الحياة «وزوجتي» لا تعترف بى عمليا زوجا لها، وطفلاها، لا يعرفان لهما أبا سواى.. فماذا أفعل يا سيدي.. إن والدتها تنصحني بالصبر عليها، وشقيقها يقول لي أن كل شيء مرهون بالصبر، وهي تنصحني بالزواج وتؤكد لى أنها ستكون سعيدة بحياتها في هذه الحالة بشرط أن أحتفظ بها في عصمتي.. وأنا لم أعد أعرف ما هو الخطأ وما هو الصواب.. فبماذا تنصحني أن أفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

من حقك بالفعل أن تتطلع لأن تحيا حياتك بطريقة طبيعية وتستغنى بزوجتك عن غيرها من النساء، ما دامت الأقدار قد جمعت بينكما في رباط مقدس ولكل منكما مصلحة مؤكدة في استمراره إلى النهاية.. أما «الاتفاق» المبدئي بينكما على أن يكون زواجكما شكليا حتى لا تخرج زوجتك وطفلاها من أحضان أسرتك، فليس مما يعتد به كشرط دائم يعتبر من خالفه كمن نقض العهد وخان الوعود.. لأنه شرط فاسد دعت إليه الضرورة النفسية في الظروف المأساوية التي أحاطت بهذا الزواج.. وربما لو لم تشترطه هي لما راودت نفسك على الارتباط بها متخلصا من الحرج الإنساني المفهوم في مثل هذه الظروف، ولما استطاعت هي أيضا أن تتغلب على

مشاعرها وأحزانها وحرجها النمطي لتقبل به. غير أن الواقع حتى ولو استعنا في البداية على القبول به بالتحايل على أنفسنا بمثل هذه المبررات والحيل النفسية، لا يلبث أن يرغمنا على أن نحيا حياتنا بطريقة طبيعية، وعلى أن نتقبل بعد حين ما كنا ننكره أو نستفظعه من حقائق الحياة قبل وقت قصير، ولهذا فإن تمسك زوجتك بهذا الشرط الفاسد حتى الآن هو الذي يعد خروجا على الاتفاق الضمني المفهوم بغير تصريح بين الطرفين حين تم الزواج وليس تفكيرك في تحويله إلى زواج حقيقي يلبي لك احتياجاتك النفسية والعاطفية هو الخروج على مثل هذا الاتفاق الصامت.

كما أن تصريحها لك بالزواج من غيرها مع بقائها في عصمتك، ليس حلا مقنعا للمشكلة.. ذلك أنه ليس كل إنسان قادرا على أن يحيا حياة مزدوجة يتنقل فيها بين زوجتين حتى ولو كانت علاقته بإحداهما شكلية ولأن الزواج مسئولية نفسية وأدبية واجتماعية قبل كل شيء.. وقليلون هم الذين يطيقون تعدد هذه المسئولية في حياتهم. كما أن وجود زوجتك في عصمتك لن يرشحك بسهولة للاستقرار والسعادة مع زوجة أخرى، ولن يكون ذلك الوضع مقبولا ولا مريحا لمن تقبل الارتباط بك وإنما سوف يظل بؤرة للمتاعب والقلاقل بينكما على الدوام حتى ولو أقسمت لها أغلظ الأيمان أنه بينك وبين الأولى من مقاصد الزواج سوى الحماية والمسئولية ورعاية الأبناء. وليس من المستبعد كذلك أن ينبه زواجك المقترح هذا لدي زوجتك الأولى مشاعرها الأنثوية واحتياجاتها النفسية الخامدة حاليا تحت ركام الأحزان.. فتتساءل: وماذا يمنعها بعد كل هذا الوقت من رجلها وهو زوجها أمام الله والجميع، فيحركها ذلك لاجتذابك إليها، أو يحفزها للاحتفاظ بك إذا استشعرت خطر فقدك النهائي واستئثار الأخرى بك.. وليس كل ذلك بمستغرب على النفس البشرية التي لا تستشعر في بعض الأحيان قيمة ما لديها إلا من خلال تقدير الآخرين له!! فلماذا كل هذا العناء.. وقد يسر لنا الله سبحانه وتعالى أن نحيا حياتنا الطبيعية بلا مشاكل ولا اضطرابات؟

إنني أتصور أن ما يحول بينك وبين زوجتك الآن هو قرب الذكرى وبطء التكيف مع الواقع الجديد الذي فرضته عليها الأقدار الحزينة. لكنها في غمار همها بنفسها وأحزانها ينبغي لها أيضا ألا تظلم شابا أمينا مثلك قبل أن يضحي بأحلامه الشخصية رعاية لاعتبارات إنسانية وعائلية نبيلة وتعفف عن الضغط على زوجته لنيل ما يصبو إليه منها مراعاة لظروفها النفسية والإنسانية، وإنما لابد أن يدعوها ذلك إلى مراجعة موقفها منه.. وابراء ذمتها من ظلمها له ومطالبته بما لا يطيقه.. ولا شك أن المشكلة القائمة حاليا بينك وبين زوجتك هي في النهاية مشكلة وقتية لن يلبث الزمن أن يجد لها الحل الموفق لها بمبضعه الذي لا يخيب.. فاعتصم بالصبر يا صديقي.. ولا تستجب الآن لنصيحة زوجتك لك بالزواج من غيرها لأنك لن تسعد في مثل هذا الزواج المقترح.. وإنما أصبر وانتظر.. ولا تدفع الأمور بأكثر مما تحتمله ظروف زوجتك النفسية الحالية وتأكد من أن لك لدى زوجتك القبول النفسي الذي يصلح أساسا كافيا لعلاقة الزواج السليمة بعد حين، قبل أحل توجهها لك بالرجاء لأن تعقد قرانك عليها لكيلا تغادر بيت الأسرة، حتى ولو كانت قد اشترطت عليك أن يكون زوجك بها صوريا.. ففي تقديري أنها لو لم تكن تقبل بك نفسيا من البداية لما سعت

لأن ترتبط بها مثل هذا الارتباط ولتحملت العودة إلى أهلها ومواجهة ضغوطهم للزواج مرة أخرى لأن ذلك أرفق بالمرأة من ارتباطها بأي نوع من الارتباط بمن تنفر منه ولا تطيق وجوده في دائرة تنفسها، لكنها فقط هذه «الاشكالية الإنسانية» التي لم تستطع بعد التكيف معها وهي أن تحل أنت منها محل أخيك الراحل في هذا المدى الزمني القصير، وهي إشكالية الزمن وحده هو الكفيل بحلها.. فأرجو ألا يطول بك الانتظار لمفعوله السحري لكيلا تتجرع عذاب الحرمان ممن تشاركها الحياة لفترة طويلة.. فإذا طال الانتظار عما تطيقه أو بدا لك أن زوجتك تصر بالفعل على مخالفة الطبيعة وعدم التكيف مع الواقع الجديد إلى النهاية، فلا مفر في هذه الحالة من الزواج مرة أخرى وتحمل هذا العناء الجديد الذي ستفرضه عليك هذه الظروف الإنسانية.. كما فرضت عليك من قبل هذه التضحية العائلية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خريف الحرمان!

لست أعتقد أن مشكلتي مشكلة شخصية بحتة.. لأني أثق في أن كثيرين من الرجال في مثل عمري يواجهونها بشكل أو بآخر ويعانونها إما في صمت.. أو في ضجر يدفعهم لارتكاب الأخطاء التي يحاسبون عنها دون النظر إلى ما دفعهم إليها.

فأنا رجل في الواحدة والستين من عمري وإن كان كثيرون يظنون أنني أصغر من سني لأنني كنت رياضيا في شبابى وأحافظ على صحتي بقدر الإمكان، وأنا حاليا بالمعاش لكني أشغل جزءا من نهاري بوظيفة لا بأس بها توفر لي، إلى جانب معاشى، حياة طيبة نسبيا من الناحية المادية، ولقد كافحت طوال حياتي بكل ما أوتيت من قوة لتوفير حياة سعيدة لأسرتي المكونة من زوجة طيبة وولدين وابنة رزقنا الله بهم كثمرة لزواج سعيد دام حوالي ثلاثين عاما، ووفقني الله خلال هذه السنوات بمعاونة زوجتي في تنشئة أولادي تنشئة صالحة وتخرجوا في كلياتهم المرموقة ورزقنا الله من فيض نعمته ما مكننا أنا وزوجتي – الأم الحنون لأبنائها- من مساعدة هؤلاء الأبناء على الزواج والاستقرار في بيوتهم جميعا والحمد لله.

ولقد اعتقدت بعد زواج الأبناء أنني وزوجتي سوف نبدأ في تمضية ما تبقى لنا من العمر في سعادة وفي الاستمتاع بالحياة وتعويض أنفسنا عن التضحيات التي بذلناها معا طوال مشوار الحياة لصالح أبنائنا، لكن ما حدث كان غير ذلك.. فلقد بدأت زوجتي في الاستغراق في دور الجدة العجوز لأحفادنا الصغار بشكل مغالى فيه بالرغم من أنها تصغرني بثماني سنوات، وأصبحت تعتبر أية مداعبة أو كلمة غزل لها تصرفا صبيانيا من جانبي.. أو علامة من علامات «الخرف» التي تداهمني وصارت تحاول بشتى الطرق والذرائع أن تتحاشاني وتتباعد عني حتى أصبحت أشعر أنني أعيش مع أخت لي تحت سقف واحد وليس مع زوجة أحببتها وارتبطت بها ثلاثين عاما، وهذا كله على حساب مشاعري التي تنبئني أنني مازلت حيا وما زالت في العمر بقية، ولقد دفعني ذلك لأن اتساءل هل من العار لمن كان في مثل سنى وكانت في مثل عمرها أن يترجما المودة والحب اللذين جمعا بينهما ثلاثين عاما إلى ما هو أكثر من عبارات المجاملة العادية، وحبي لرفيقة حياتي مازال على ما هو عليه منذ تزوجتها؟

إنني أعرف بالطبع أنها تمر بمرحلة ما يسمونه خطأ بمرحلة سن اليأس وأعرف ما تمر به المرأة من تحولات في هذه المرحلة من العمر، لكني أعرف أيضا أن بعض النساء تنعكس عليهن كلمة «اليأس » هذه بطريقة مبالغ فيها ويعتقدن أن إقبالهن على أزواجهن وإظهار مشاعرهن لهن في هذه السن يعتبران عيبا ينقص من احترامهن لأنفسهن، كما أن نفور بعض الزوجات من أزواجهن في هذه المرحلة من العمر كثيرا ما يدفع هؤلاء الأزواج إلى الشك في تحول مشاعر زوجاتهم عنهم والاسترابة – في وجود « رجل آخر » في حياتهن وهو ظن خاطئ بالطبع لكن من يتوهمونه لديهم بعض العذر فيه من أحوال زوجاتهم معهم في هذه المرحلة من العمر..

ولقد وجدتني أفكر لا إراديا في هؤلاء الرجال الذين تحولوا وهم في مثل سني إلى امرأة أخرى سواء بالزواج الثاني الذي يزلزل حياتهم العائلية، أو بالعلاقة غير المشروعة.. واتخيل أنهم لابد قد مروا بمثل ظروفي الحالية وحاولوا جاهدين إصلاح ما فسد من علاقاتهم بزوجاتهم بلا جدوى، فلم يعبروا عن أنفسهم فكان هذا التحول، واتساءل هل يجوز أن نلوم كل من تزوج بأخرى في مثل هذه السن ونتهمه بالجحود وخيانة العهد وسنوات العشرة الطويلة مع زوجته وأم أولاده أو نتهمه كما يفعل البعض الآخر بالخرف والمراهقة المتأخرة إذا كانت دوافعه لما فعل مماثلة لما أشكو منه الآن؟

إنني كغيرى لا أوافق أمثال هؤلاء الرجال على تصرفاتهم وخاصة على تورطهم في علاقات غير مشروعة مع غير زوجاتهم، ولا أؤمن بالزواج الثاني بعد أن استقرت سفينة الحياة بالزوجين والأبناء بعد رحلة العمر الطويلة ناهيك بالطبع عن العلاقة غير المشروعة لكني أتساءل عن دور الزوجة في دفع بعض هؤلاء الرجال إلى الزواج الثاني أو سلوك الطريق غير المشروع في هذه المرحلة من العمر التي تبدأ غالبا بعد الخامسة والخمسين..

قد تقول لي يا سيدي إن مصارحتي لزوجتي بكل ما أشعر به هي الحل ولا شك أنها الوسيلة الطبيعية للتعامل مع هذه المشكلة، لكني من ناحية أخرى لا أقبل الإحساس بأن زوجتي تقترب مني لمجرد إرضائي وهى كارهة، فهذا يجرح كبريائي وإحساسى بادميتى، كما أنني لا أقر فكرة الزواج الثاني نهائيا لا في مثل سنى ولا في أي مرحلة من العمر، ومن أسف أنه لا توجد لدينا في الشرق هيئات علمية أو اجتماعية يمكن اللجوء إليها وطلب المشورة منها في مثل هذه الحالات، بل إننا نشعر بالخجل والحياء أيضا لمجرد الحديث في مثل هذه الأمور حتى مع أقرب الأصدقاء، وكان هذا العامل وحده هو سبب ترددي في الكتابة إليك طويلا فماذا أنت قائل لي؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

يحتاج الرجل إلى زوجة وشريكة للقلب والمشاعر طوال العمر وليس فقط إلى أم لأبنائه أو جدة لأحفاده.. لكن المشكلة أن بعضنا يشعر بالعمر شهورا مرضيا فيغالي في الاحساس بتقدم سنه وانقضاء الشباب وانتهاء الدور والحق في الاستمتاع بالحياة، فيورثه هذا الشعور المتضخم بالعمر زهدا في متع الحياة المشروعة وتعففا عنها وميلا للنفور منها أو اعتبارها مما لا يليق به في سن الجلال والاحترام، وكل ذلك ليس من العدل أو الدين أو الصحة النفسية والوجدانية للإنسان في شيء فالحياة لا تنتهي إلا بانطواء صفحة الإنسان فوق سطح الأرض، والمشاعر والأحاسيس لا تعرف الشيخوخة أو التوقف ما دام في الإنسان قلب ينبض ودم يسري في العروق، واستاذنا نجيب محفوظ يقول لنا في أصداء السيرة الذاتية « إننا قد طبعنا على حب الحياة وكره الموت ». ولا حيلة للمرء فيما فطره عليه خالقه سبحانه وتعالى، والمرحلة التي يفرغ فيها الزوجان من مسئولياتهما العائلية ويرحل عنهما الأبناء

ليقيموا اعشاشهم الصغيرة وتنتهي فيها سنوات البناء والكفاح التي امتصت طاقات الزوجين في العمل الشاق وتربية الأبناء هي المرحلة التي يسميها علماء النفس في الغرب حرفيا: السن المحلاة بالسكر أو «Sugar age ، وهي السن التي تتهيأ فيها النفس لتذوق مباهج الحياة الحقيقية من متع معنوية ونفسية وعاطفية لم تسمح الظروف خلال سنوات الكفاح والعمل الشاق الطويلة بإعطاء الوقت الكافي لها وفي هذه المرحلة الذهبية من العمر فإن الزوجين لا يتوقفان عن النشاط العاطفي بدعوى أنه لا يليق بهما وهما في سن الجلال والاحترام أن يتبادلا كلمات الغزل واللمسات العاطفية والرومانسية بل لعلهما على العكس من ذلك قد لا يجدان من مراحل العمر ما هو جدير بمثل هذه اللفتات من هذه المرحلة التي خلا كل منهما فيها لصاحبه واشتدت حاجته العاطفية والإنسانية إليه..

والمشكلة هي أن بعض الزوجات قد يربطن ربطا خاطئا بين بلوغهن سن التوقف عن الانجاب التي تسمى ظلما بسن اليأس، وبين الظن الخاطئ بانتهاء دورهن كزوجات في حياة أزواجهن وبداية دورهن كجدات للأحفاد ورفيقات للزوج في وحدته بعد زواج الأبناء..

وبعض مشاكل الأزواج والزوجات في هذه المرحلة من العمر التي قد تدفع بعض الأزواج إلى الاعتقاد بتحول مشاعر زوجاتهم عنهم.. وإلى التفكير في الزواج الثاني أو العلاقة غير المشروعة ترجع أساسا إلى أنهم لا يتعاملون بحكمة مع المتغيرات الفسيولوجية التي تتعرض لها المرأة في هذه المرحلة من العمر فيطلبون لها العلاج المتاح بدلا من تجاهلها أو الجهل بها.

فالمرأة تتعرض في هذه المرحلة من العمر لبعض المتغيرات الفسيولوجية التي تنجم عن نقص هورمون الاستروجين في جسمها منها اللفحة الساخنة أو الفورات التي تتمدد فيها الأوعية الدموية على نحو غير عادي وتنشط الغدد العرقية فتشعر المرأة بموجة ساخنة تجتاح الصدر إلى أعلى ومنها الشكوى من تدفق اللعاب في الفم أو جفافه وما يرافق ذلك أحيانا من غثيان وصداع أو دوار وأرق، وما قد يترتب على كل ذلك من بعض الاضطرابات النفسية المؤقتة كالاستسلام للإحساس بالكآبة وفقد الثقة بالنفس والشعور بمركب النقص والاحساس بالإهمال من جانب الزوج مما يقودها إلى الغيرة القاتلة المدمرة في بعض الأحيان، فضلا عما يؤدى إليه نقص الاستروجين من ضمور في بعض أنسجة الجسم ويجعل النشاط العاطفي مؤلما للزوجة ويدفعها للنفور منه وتجنبه، وكل ذلك قابل للعلاج بشرط أن تنتبه المرأة لهذه الأعراض وتطلب العلاج المتاح لها.. غير أن مشكلتنا كما تقول هي أنه لا توجد لدينا هيئات متخصصة في هذا النوع من الاستشارات الأسرية أو لا توجد بالقدر الكافي، ولم يستقر بعد في وعينا سلوك التوجه إليها وطلب مساعدتها ومشورتها في مثل هذه المشاكل الزوجية، كما أننا مازلنا للأسف نخجل كما تقول من الحديث عن هذه الأمور حتى لأقرب الأصدقاء ونفضل غالبا أن نكابدها صامتين أو أن نكتفي بالشكوى من أعراضها.. أو نبحث عن حلول خارجية للمشكلة ونعتبر الزوجات مسئولان عن ذلك دون محاولة لعلاج الأسباب، ومواجهة الحقيقة في النهاية خير دائما من تجاهلها أو الاكتفاء بالشكوى من آثارها وبعض أسباب هذه

المشكلة التي تحدثتي عنها بالنسبة لزوجتك لا يندرج في تقديري تحت بند الاضطرابات النفسية المصاحبة لهذه المرحلة من العمر بقدر ما يندرج تحت بند الشعور المغالي فيه لديها بتقدم العمر والربط الخاطئ عندها بين النشاط العاطفي والإحساس بالتعارض بينه وبين ما ينبغي للمرأة من وقار واحترام كأم وجدة في هذه المرحلة من العمر وإني لأتفق معك في مسئولية مثل هذه المفاهيم الخاطئة لدى بعض الزوجات عن تطلع أزواجهن إلى الحصول على زادهم العاطفي خارج نطاق الأسرة.. غير أن الخطأ لا يبرر الخطأ في النهاية ولابد دائما من السعي لتصحيح الأخطاء بدلا من التماس العذر فيها لارتكاب المزيد من الأخطاء.. ولابد لزوجتك من أن تعينك على أمرك بطلب العلاج المتاح لآثار نقص الاستروجين في الجسم وبتصحيح بعض مفاهيمها الخاطئة عن العمر والعاطفة ودور الزوجة في حياة زوجها الذي لا يتناقض أبدا مع دورها كأم أو جدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشـــــاهد!

أنا شاب عمري 31 عاما أعمل في وظيفة مناسبة بشركة محترمة وبمرتب معقول، وقد تزوجت منذ 5 سنوات من فتاة أحببتها.. وتمنيت أن أسعد بحياتي معها وأن أسعدها.. ووفقني الله في اعداد مسكن مجهز بالتليفزيون والثلاجة والغسالة الأتوماتيك، وأصبح بيتنا جميلا في عين كل من يدخله، ويلمس بساطته وتناسقه والذوق السائد فيه..

وحين انتهيت من اعداد هذا المسكن الصغير قلت لنفسي إننا قد جهزنا «المكان» ولم يبق إلا أن نبعث فيه دفء السعادة والود المتبادل والعشرة الحلوة، واقبلت على حياتي الجديدة مفعما بالآمال والرغبة القوية في السعادة، لكنني لم أحظ بشيء من ذلك للأسف، لأن زوجتي غير راضية عما أتيح لنا من أسباب، وأعيش في نكد مستمر منها، ومن أهلها الذين يناصرونها على طول الخط ظالمة ومظلومة، وكذلك بسبب نصائح أمها لها بأن كل ما عليها أن تفعله حين نتشاجر هو أن تضع «ماكياجا» كاملا على وجهها، وترتدي أحسن قميص لديها.. وتفتح جهاز التسجيل على أعلى صوت له وكأنها تقول للجميع أنه لا يهمها زوجها في شيء!

أما في مناقشاتنا فهي لا تلتزم الأدب معي ويرتفع صوتها على، وتنطق بألفاظ غير محترمة مما يجبرني وأنا الرجل الهادئ المصلي الذي يشهد له الآخرون بحسن خلقه على الرد على إهاناتها..

وحتى بعد أن أنعم الله علينا بالولد استمرت والدتها تؤلبها على وعلى أخوتي الذين يكنون لزوجتي الحب وذلك لكي تقطع علاقاتها بهم بالرغم من أنهم يقيسون في أطراف المدينة ولا يزورونا كثيرا..

وحين بلغ ابني من العمر عامين ونصف العام أصبح للمشاكل بيننا شكل آخر وعند حدوث خلاف بيني وبينها خلال الليل فإنها بدلا من أن تحتوي المشكلة لكيلا يصحو الطفل من نومه، فإنها توقظه لكي يشهد «الخناقة» بيني وبينها ويكون «شاهدا» على ما يجري بيننا فلا يملك الطفل الصغير إلا أن يبكى ويرتجف من الخوف والفزع، وفي بعض الأحيان قد لا تكتفى بإيقاظه فقط وإنما تضربه أيضا لكي ينشأ «معقدا» مثلها كما تقول لى ومنذ بضعة أسابيع طلبت مني أن تذهب إلى بيت أهلها لحضور حفل عيد ميلاد أحد إخوتها.. واعترضت على ذلك لمرضها بسبب الحمل، فذهبت إلى أهلها غاضبة.. واستبقاها الأهل لديهم بغير أن يرشدها أحد منهم إلى الصواب وأيدوها على طول الخط كعادتهم معها، وكان شرطهم لعودتها للبيت أن يتنازل أهلي عن دين لهم أقترضته منهم لعلاجها عقب الولادة من مرضها.. وألا التزم بدفع أقساطه، لأن ذلك كما يقولون يؤثر على حياة ابنتهم!

إنني أكتب إليك الآن لكي أقول لك إنه لا أحد يطلب التعاسة لنفسه أو يتمنى الفشل في الزواج، لكن ظروف الحياة قد تضطرنا في بعض الأحيان إلى أن نفعل ما لا نتمناه لأنفسنا..

فأنا مثلا لم أكن أتصور أن يجيء اليوم الذي أفكر فيه جديا في الطلاق، وهدم بيتي وتمزيق طفلي الصغير بيني وبين أمه.. ويكدر على حياتي الآن التفكير الدائم في مصير هذا الطفل البريء.. ومصير الجنين الذي لم يأت إلى الحياة بعد..

فماذا أفعل يا سيدي.. وماذا تقول لهذه الزوجة ولأهلها الذين يناصرونها دائما ضدى؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

نعم يا صديقى لا أحد يطلب التعاسة لنفسه أو يرغب بصدق في حرمان أطفاله من سعادتهم، وأمانهم بين أبويهم، لكن السعادة لا تتحقق بالتمني وحده ولا بالرغبة السلبية فيها، وإنما تتحقق كذلك بالعناء.. وبالصبر على بعض المكاره.. والتعالي على الصغائر، والتحلي بالمرونة الضرورية في بعض الأوقات، وإلا تحولت العلاقة بين كل زوجين إلى علاقة صراع لا علاقة تفاعل وتحاور وتنازلات متبادلة وحرص مشترك على حماية الحياة الزوجية من الانهيار..

بل إننا نحتاج في بعض الأوقات لكي نحافظ على سفينة الحياة طافية فوق سطح الماء إلى أن نستعير من العلوم السياسية بعض قواعد فن إدارة الأزمات ونطبقها بحكمة على حياتنا الخاصة، ومنها أن نعرف متى نتراجع عن إرادة أو رغبة لا يؤدي التمسك المتحجر بها للنهاية إلا إلى انفجار الموقف وتقطع الخيوط بيننا وبين الآخرين.. وأن نكون مستعدين في بعض الأحيان للقبول بالحلول الوسط بديلا عن الحلول المثلى الملبية لكل رغباتنا وشروطنا، وأن نتجنب الاستجابة لاستفزازات الآخرين، ونفوت عليهم الفرصة لدفع الأمور بيننا وبينهم إلى الطريق المسدود.

وما تشكو منه من مشاحنات بينك وبين زوجتك ومناصرة أهلها لها ضدك.. وما تتصوره من تحريض أمها لها عليك، و «نصائحها» غير الحكيمة لها بشأن التعامل معك في وقت الخلاف، كل ذلك مما يمكن احتواؤه وإصلاحه وتخفيف آثاره السلبية.. والصبر على مكارهة.. إذا انعقدت ارادتك وإرادة زوجتك على إنقاذ سفينتكما من الغرق، وإنقاذ طفلكما الصغير من الشقاء وطفلكما المقبل من المصير المجهول..

وتحديد الهدف الذي يستحق أن يسعى إليه الإنسان بكل ما يملك من جهد وطاقة يؤدي به بالضرورة إلى استبعاد الوسائل التي لا تعينه على بلوغ الهدف.. واتخاذ كل الوسائل التي تقربه منه.. فإذا اتفقنا على أن الهدف الأساسي لك ولزوجتك ينبغي أن يكون انقاذ حياتكما الزوجية من الانهيار وطفلكما والجنين القادم من عالم الغيب مما يتهددهما من تمزق وحيرة وضياع إذا حدث الانفصال بينكما، فإن ذلك يفرض على كل منكما أن يتنازل عن كل «الأهداف الصغيرة» الأخرى له كهدف الانتصار الرخيص في معركة قهر إرادة الطرف الآخر واملاء الرغبات وفرض الشروط وأن يركز جهده على كل ما يقرب وليس ما يفرق بينكما.

وقديما قال الأديب الانجليزي لورد جون أوبك أفبرى، إن الفشل الشريف خير من الفوز الرخيص، وتطلع كل منكما الآن في هذا الموقف المتأزم لفرض ارادته على الآخر دون أي تنازل من جانبه وإلا وقع الانفصال لن يكون إذا تحقق على حساب مصير طفلكما وجنينكما سوى فوز رخيص، الفشل في تحقيقه أشرف كثيرا من النجاح فيه وفشل كل منكما الآن في املاء رغباته على الآخر إذا كانت نتيجته الحتمية هي توصلكما معا لحل وسط واستعادة الوفاق بينكما وعودة طفلكما الحياة بينكما بلا قلاقل ولا اضطرابات هو عين « الفشل الشريف » الذي يحق لكل ذي قلب حكيم منكما أن يفتي به ويحتسبه من فضائله وليس من مواقف ضعفه أو هزائمه..

ولهذا كله فإني أدعوك أنت وزوجتك وأهلك إلى كلمة سواء تتوصلون معها بإذن الله إلى تبديد غيوم الخلاف والشقاق بينك وبين زوجتك وإعادة الأمان والاطمئنان لحياتكما وطفلكما وجنينكما المقبل مع رجائي الحار لزوجتك إذا ما نشب بينكما في المستقبل أي خلاف - أن تعفي طفلكما البريء من «الشهادة» عليه.. وأن تؤمن مع العقلاء والرحماء من الآباء والأمهات بأن أثمن ما يقدمه أب وأم لأطفالهما مهما يكن نوع العلاقة بينهما، هو طفولة سعيدة خالية من الآلام.. والأحزان.. والمؤثرات السلبية الكريهة وليست طفولة معذبة شقية حافلة بمثل هذه «الشهادات» اللاإنسانية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهروب إلى الماضي!

أنا شاب في الخامسة والعشرين من عمري نشأت في أسرة متدينة.. وكنت الابن الوحيد لأبوين من رجال التعليم الأب يعمل مدرسا للغة العربية ووكيلا لمدرسة إعدادية، والأم مدرسة لمادة التاريخ بنفس المدرسة. فنهلت منذ صغرى من نبع الحب والحنان المتدفق في قلب أمي وصدر أبي.. ونشأت منذ طفولتي على الالتزام والطاعة.. بالرغم من أنني أبن وحيد وشعرت دائما باعتزاز أبى وأمى بى. ومضت بنا سنوات العمر وتقدمت في الدراسة من مرحلة إلى مرحلة حتى حصلت على الثانوية العامة، والتحقت بالجامعة وبدأت أتطلع للحياة والمستقبل، وأحلم بالغد الذي أتخرج فيه في كليتي وأعمل.. وتضع الحياة في طريقي الفتاة التي سأرتبط بها وتشاركني رحلة العمر.. إلى أن قطع علىّ هذه الأحلام السعيدة يوم الاثنين الأسود اللعين الذي وقع فيه الزلزال الكبير في 12 أكتوبر 1992 ورجعت إلى البيت عقب وقوعه بساعة فإذا بي أجد بيتنا ركاما وحطاما وأكواما من التراب، وأبي وأمي تحت أنقاضه، فأقف وسط رجال الإنقاذ منهارا ومذهولا وضائعا أشهد مشهد الختام المؤلم في حياة أبي وأمي، اللذين كانا كل ما لدي في هذه الدنيا الغادرة.. وأراهما بأم عيني محمولين على محفات رجال الإنقاذ إلى المصير المحتوم وكنت حين وقعت هذه المأساة التي غيرت كل شيء في حياتي في التاسعة عشرة من عمري فانتقلت للعيش مع جدتي لأمي وحاولت جدتي أن تعوضني بعض ما فقدت من حب وحنان ولكن هيهات أن تستطيع ذلك وحزنها هي نفسها كان أضعاف حزنى..

وحاولت أن أتحصن بالقرآن والصلاة لكني كنت قد فقدت شيئا من روحى السابقة لا أستطيع استرداده.. ووسط هذه الظروف القاسية واصلت دراستي حتى انتهيت منها وهزم الحزن والقهر جدتي الطيبة فرحلت هي الأخرى عن الحياة رحمها الله ووجدت نفسي وحيدا تماما في الدنيا ونظرات الاشفاق تحيط بي من كل جانب.

وعقب وفاة جدتى كرهت الحياة في بلدتي التي نشأت فيها فتركتها هربا من نظرات الشفقة التي تقتلني وانتقلت إلى مدينة ساحلية كبيرة عسى أن أنسى فيها حزني وهمي ووحدتى وعملت في مكان لا يعرفني فيه أحد على الإطلاق، وتضرعت إلى الله أن يمدني بالقدرة على تحمل حياتى، لكني تحولت إلى إنسان نصف غائب عن الوعي وفقدت توازنى النفسي وعجزت عن تحمل الواقع. فرحت أهرب منه إلى الماضي وأعيش فيه واستعيد مشاهد حياتي السابقة قبل سنوات حين كنت أعيش في بيت دافئ بالحب والحنان.. وأرى نظرة الحب والاهتمام في عيني أبي.. ونظرة الحب والفخر والاعتزاز في عيني أمي، وأراني محور حياتهما واهتمامهما في كل شيء فإذا كنت خارج البيت لا يهدأ لهما بال إلا حين يسمعان صرير مفتاح الشقة وأنا أفتح به الباب وأدخل عليهما قائلا: مساء الخير يا بابا.. مساء الخير يا ماما.. فيردان علىّ التحية بأحسن منها، ويطمئن قلباهما.. وتنهض أمي لإعداد العشاء لي.. ويدعوني أبي للجلوس بجانبه بعض الوقت قبل أن ينام ويسألني عما فعلت خارج البيت.. ومن من الأصدقاء قابلته وماذا قلنا في سمرنا معا.. وينصت باهتمام شديد لما أحكيه له من ذلك كأنما ألقي على أسماعه الدرر الغالية.. ويضحك من قلبه على

أية نادرة أرويها له وترجع أمي بصينية العشاء وتشاركنا الضحك وتحدونى بعطفها كأني طفل صغير.. أما احتياجاتى ومطالبي فقد كانت لها الأولوية المطلقة عندهما.. ومن بعد ذلك كل شيء يمكن تدبيره أو الانتظار عليه.. وإذا جلسا في أول الشهر يعدان ميزانية البيت كان أول ما يفكران فيه هو مصروفي.. وثمن كتبي.. وملابسي.. الخ، أما إذا مرضت بنوبة برد أو نزلة معوية، فلا شاغل لهما إلا صحتي ودوائي ونصحي بالراحة وعدم التسرع في الخروج من البيت قبل الشفاء التام.. وأما يوم نجاحي في نهاية العام فهو عيد خاص لهما تنهال على فيه كلمات التهنئة والإشادة وعبارات الدعاء لي بالفرح والسعادة في الحياة وهكذا تتوالى على الذكريات.. وتتراءى لى الوجوه الحبيبة في وحدتي وتمضي بي الساعات وأنا مستغرق في الماضي الجميل..

فكأنما أعيش فيه أكثر مما أعيش حاضري التعيس.. ويسيء من حولي تفسير هذا الصمت شبه الدائم وهذه العزلة وتتساءل نظراتهم عما يحول بيني وبين الاندماج معهم..

ولقد كتبت لك هذه الرسالة لأنه لا صديق لي أشكو إليه حزنى وهمي فأرجو أن تفتح لى قلبك وألا تضن على بنصيحتك والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

حين يشتد ضيقنا بتعاستنا قد نتلمس السلوى في استرجاع ذكريات الأيام السعيدة في حياتنا ومعايشة رموزها وشخوصها في مخيلتنا ووجداننا لبعض الوقت.

ولقد عبر عن هذا المعنى الأديب الفرنسي الكبير جوستاف فلوبير حين فرقت الأيام بينه وبين أسرته وأشتد إحساسه بمعاناته في وحدته، فكتب في رسالة إلى أمه يقول: بينما يواصل جسدي خطواته إلى الأمام فإن أفكاري لا تفتأ ترجع إلى الوراء وتعود إلى الأيام السعيدة التي عشتها في كنفكِ غير أن استرواح نسائم الماضي السعيد بهدف استرجاع بعض لحظاته الجميلة من حين لآخر شيء.. والاستغراق الكامل فيه معظم الوقت وبشكل يعوق تواصل الإنسان مع حاضره وتقبله له شيء آخر ينبغي التوقف أمامه، والاحتراس من آثاره النفسية السلبية.. فحياة كل إنسان في الحياة تتمحور دائما حول ثلاث دوائر هي ماض بعيد يحن إليه من حين لآخر.. وحاضر يحياه ويتواصل معه ويوجه إليه كل همته واهتمامه.. وغد يتطلع إليه ويأمل فيه دائما.

واستغراق الإنسان في ماضية على حساب حاضره والتطلع لمستقبله يعنى الهروب النفسي من الواقع والعجز عن تقبله والتواصل معه.. واستغراق الإنسان في التطلع إلى الغد على الناحية الأخرى يعنى إهدار الحاضر لحساب مستقبل في علم الغيب، والاستغراق في الأحلام على حساب الواقع والتوازن النفسي يطالبنا دائما بتقبل الحاضر والتواصل معه ومعايشته بصفة أساسية فلا يمنعنا ذلك من التماس العزاء من حين لآخر في ذكريات الماضي السعيد، ولا من التمسك دائما بالأمل في

المستقبل. وأنت شاب في مقتبل العمر، ولم تكد جولتك في الحياة تبدأ أول فصولها، ومهما كانت قسوة المأساة التي فرضتها عليك أقدارك الحزينة، فلابد لك أن تقبل بصبر وإيمان وشجاعة بواقعك الأليم.. وتكف عن الهروب النفسي منه، لأنه لا جدوى للأسف من الاستغراق في الحزن والصمت والعزلة ورفض الواقع والهروب منه إلى الماضي، وأنت يا صديقي في أشد الحاجة إلى التفاعل مع الحياة والاندماج مع البشر من حولك، واكتساب الصداقات الجديدة وشغل أوقاتك بالنشاطات الاجتماعية المختلفة، لأن الوحدة بلاء لا يحتمله الإنسان السعيد الذي تخلو حياته من الأحزان والمآسي.. فكيف بمن كان في مثل ظروفك الحزينة هذه التى تصبح فيها الوحدة بلاء لا يحتمله أولو العزم من الرجال؟ إن المحزون تشتد حاجته إلى المشاركة الوجدانية في أحزانه وليس إلى الانفراد بها دون الغير وليس هناك ما يدعوك إلى العزلة ورفض الآخرين والهروب بمأساتك من مكان إلى مكان.. ومن زمان إلى زمان، كأنما تتوارى بسوأة ارتكبتها عن العالمين لأنك ضحية لأقدار مؤلمة ولست جانيا على أحد، ولأنه لا معنى لانفرادك بأحزانك نفورا من نظرات الإشفاق في عيون الآخرين إذا علموا بها أو شاركوك فيها.

والحق أني على كثرة ما حاولت قدر جهدى فهم بعض أسرار النفس البشرية، فإني لم أستطع أن أفهم حتى الآن منطق نفور بعض المبتلين من نظرة الاشفاق عليهم في عيون الآخرين، ذلك أنه ليس في اشفاق الآخرين علينا ما يدعونا للنفور منه بدلا من الامتنان له والتخفف به من بعض أحزاننا، بل إن في حرماننا من العطف الإنساني ما يضاعف من معاناتنا، ويشعرنا بوحدتنا الكاملة في مواجهتها وبهوان أمرنا على الآخرين وافتقادنا لمن يهمه أمرنا. وكل إنسان في الوجود مهما علا قدره واشتد بأسه يحتاج إلى شيء من العطف الإنساني من جانب المقربين إليه.. فهذا العطف ليس سوى «إعلام» له بأن هناك من يهتمون بأمره ويشفقون عليه من مكابدة همومه وحيدا.. فإذا كنا نرفض من يغالون في التطفل على الآخرين بأحزانهم وهمومهم بلا مبرر لذلك سوى الاعتمادية النفسية على الغير وادمان الشكوى واستجداء العطف، فإنه ينبغي لنا أيضا أن ندين من يغالون في الانطواء علي أحزانهم واعتبار إشفاق الآخرين سلوكا يربأون بأنفسهم عن التعرض له.. والهم من أشد الأسلحة فتكا بالإنسان إذا انفرد به وحده وافتقد المشاركة والعزاء ففيم انفرادك به دون غيرك من البشر.. وفيم نفورك من الآخرين وأنت في أشد الحاجة إلى المحبة والإيناس؟!

إنني أدعوك إلى أن تعتبر جماعة أصدقاء «بريد الأهرام» التي ستعقد اجتماعا قريبا لها بإذن الله في مدينتك الساحلية هي أسرتك الكبيرة التي يسعدها انتماؤك لها ومشاركتك في أنشطتها.. ولسوف أدعوك بإذن الله إلى الاجتماع المقبل بمدينتك وأقدمك لأعضائها ومن بينهم عدد كبير من أبناء مدينتك سوف يتواصل اللقاء بينك وبينهم بإذن الله بعد انفضاض الاجتماع.. وليكن ذلك هو الخطوة الأولى في خروجك من قوقعة الأحزان.. ومحاولة التواصل مع الحاضر والقبول به.. أما الخطوة الكبرى فلسوف تتحقق إن شاء الله حين تصنع أسرتك الصغيرة وتجمع

الأقدار بينك وبين من تشاركك رحلة الحياة وتتقاسمان فيها أحزانها وأفراحها.. بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله)

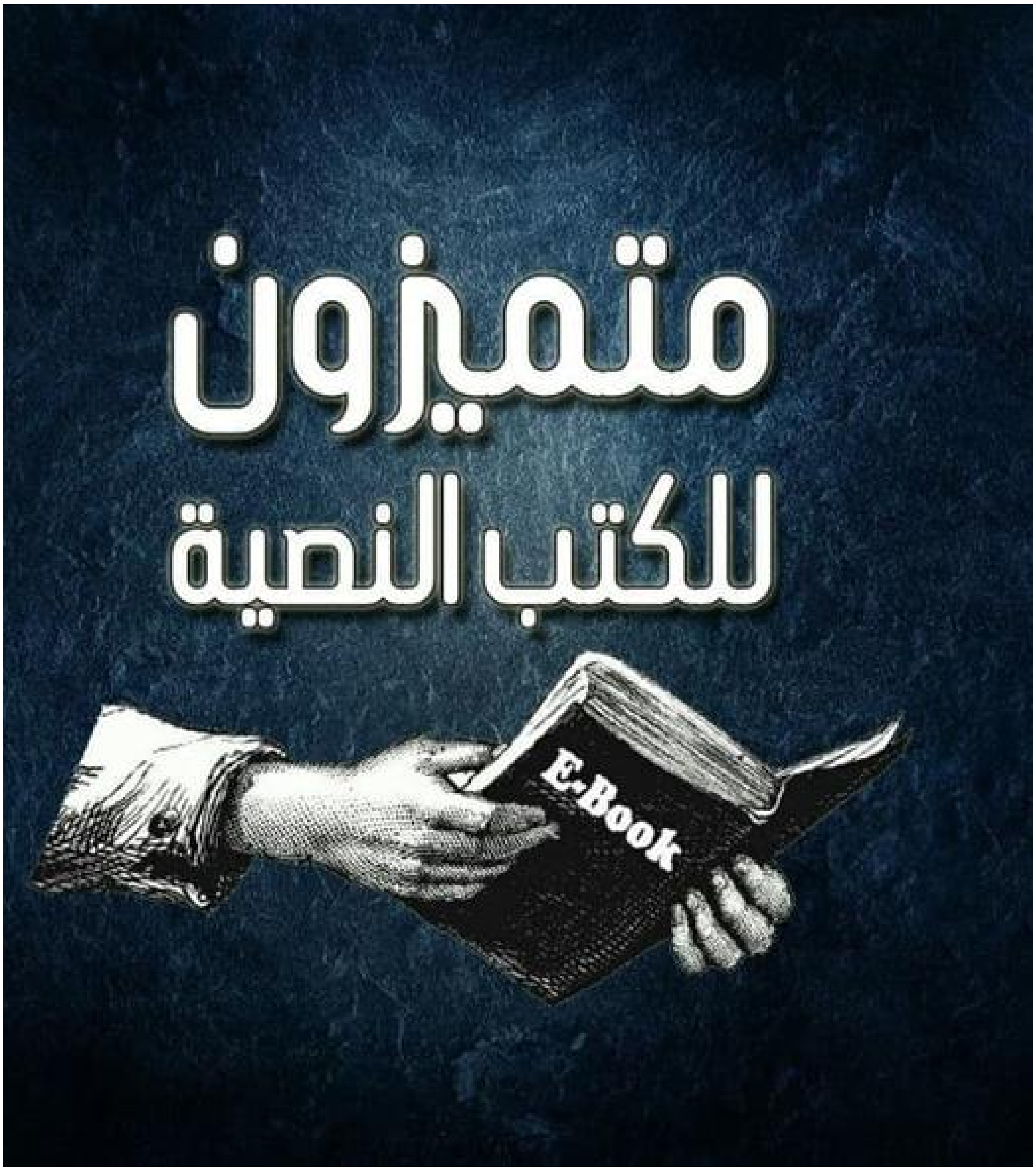
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنــــاة

-

الفهرس:

مقدمـــة..

حق الإختـــــيار

ســـرّ التحول!

الزلزال المدمر!

كشف المستور!

العواصف الهوجاء!

الخطة الجهنمية!

إبتسامة الهزيمة

صراع الديناصورات

النظرة الأخرى

النظرات المتبادلة

حصاد الصـــبر!

الكلمات الممرورة!

الضوء الوحيد!

بطاقات الدعوة!

البيت الجديد!

خريف الحرمان!

الشـــــاهد!

الهروب إلى الماضي!